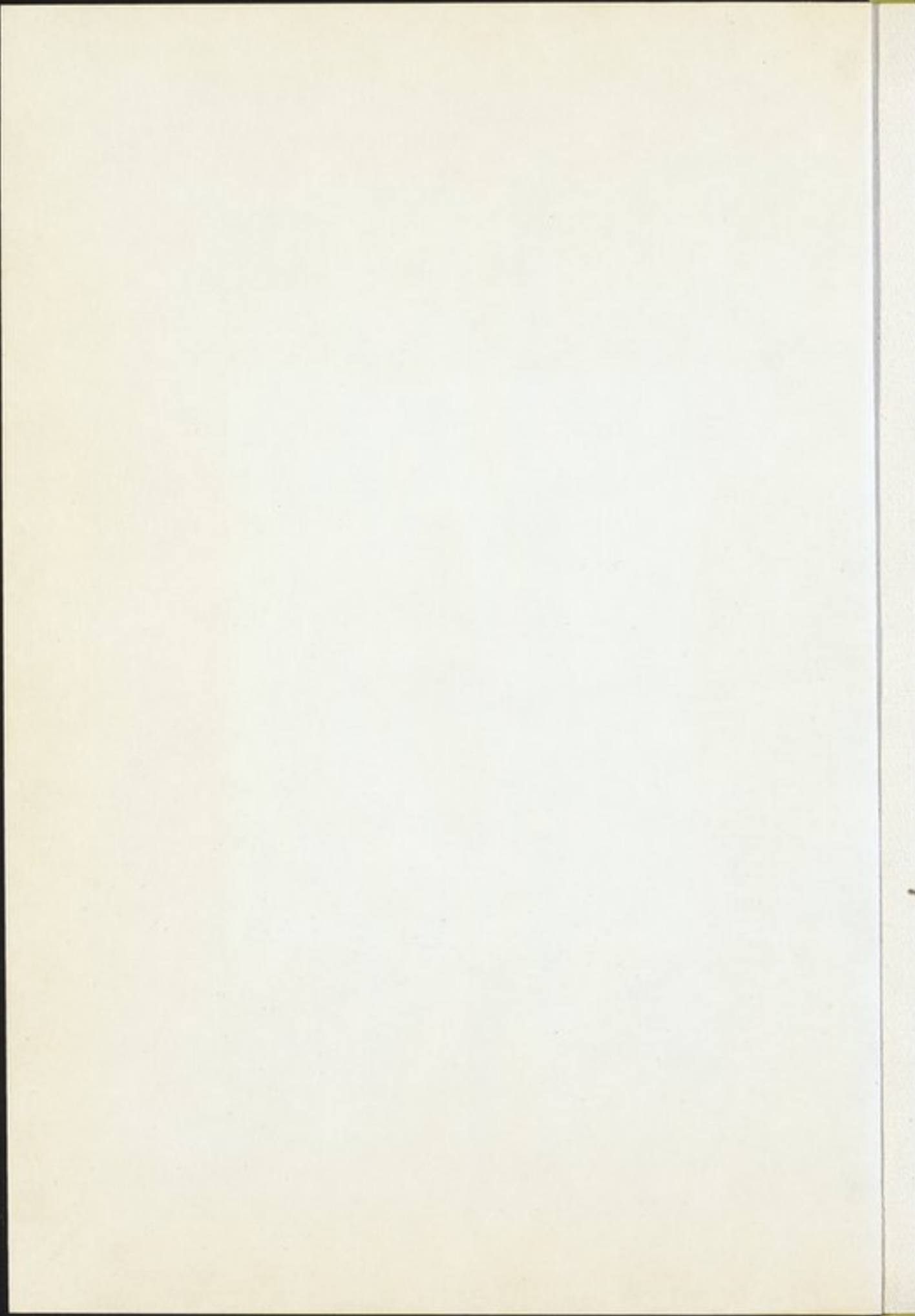
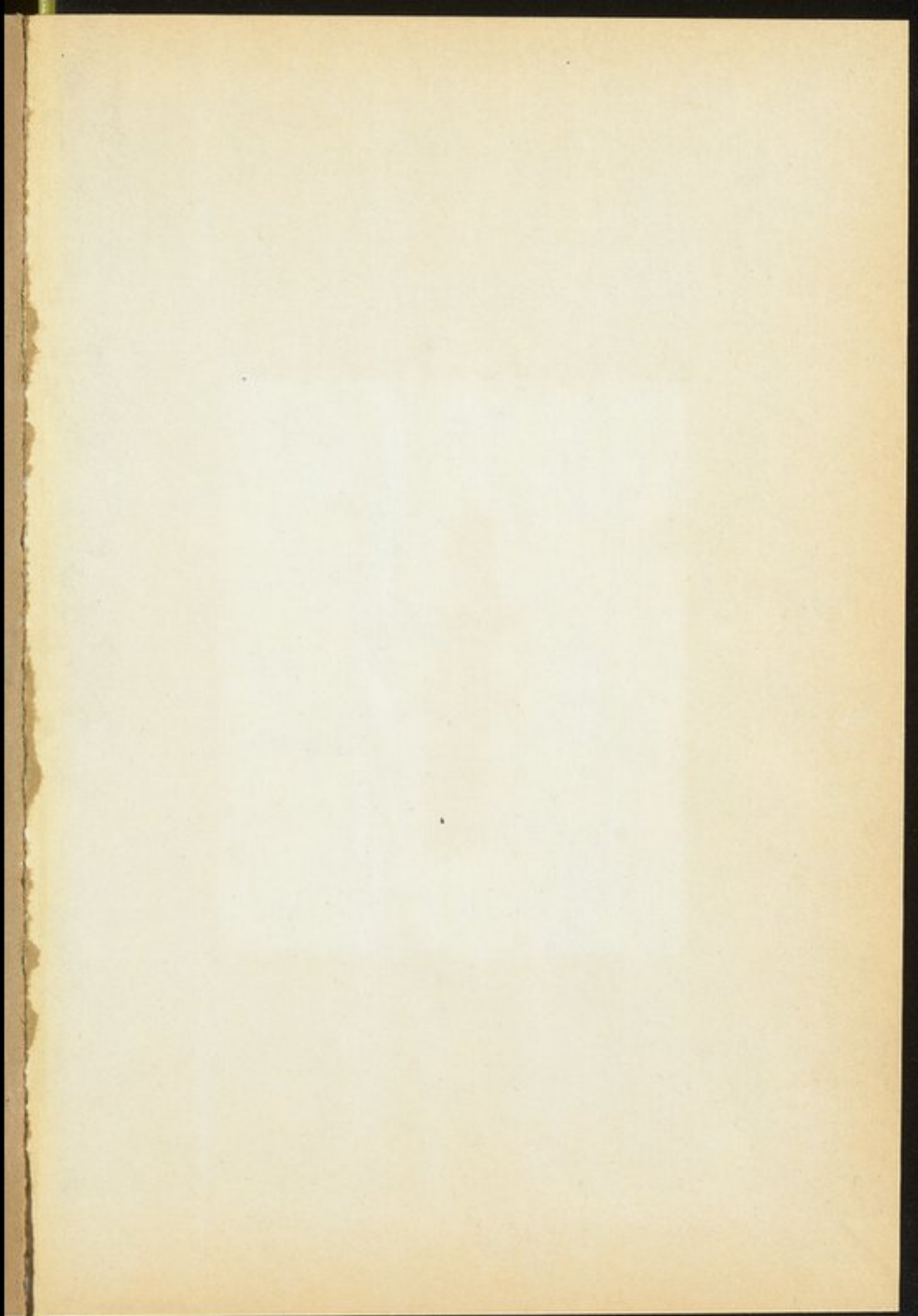


THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY



GENERAL LIBRARY





قررت وزارة المعارف تدريس المدارس الثانوية هذا الكتاب

علاج النفس

لمنشئ

المرحوم السيد محمد الموييلي بك

الطبعة الأولى

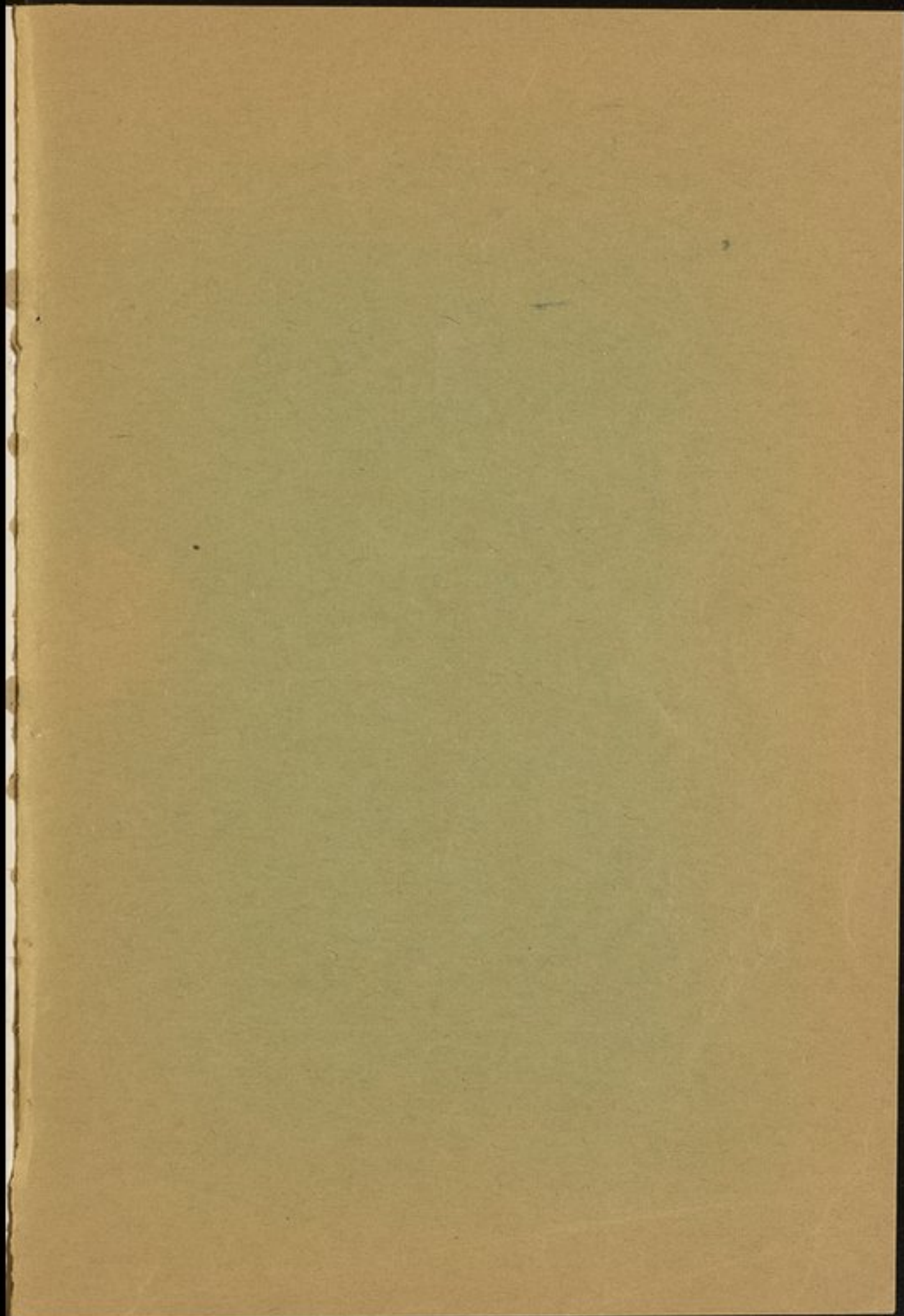
حقوق الطبع محفوظة

التمن

$\frac{2}{10}$

التزمت نشره وطبعه على نفقتها مطبعة فؤاد

طبع بمطبعة فؤاد بميدان باب الخلق عمارة الاوقاف



قررت وزارة المعارف تدريس المدارس الثانوية هذا الكتاب

علاج النفس

لمنشئ

المرحوم السيد محمد المويطحي باب

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

التزمت نشره مطبعة فؤاد

طبع بمطبعة فؤاد بميدان باب الخلق عمارة الاوقاف

BF

149

.M89

مبتدئة

بقلم الاستاذ الجليل اسماعيل شيرين بك
مدير المطبوعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والیه توسلی . وعلیه توکلی

أما بعد فهذا كتاب في فنون الحكمة ، وضروب رياضة
النفس ، وضعه الحكيم المرحوم السيد محمد المويلحي بك ،
يقصد به الى تهذيب النفس ورياضتها وحثها على استكمال
حاجتها من الأخلاق الفاضلة والتربية القويمة ، وقد وفقه
الله في فلسفته كما وفقه في أدبه فجاء الكتاب بفنونه المتعددة ،
وموضوعاته المتشعبة ، مما يذاق ويساغ ومما تشد الأيدي عليه ،
ويحجج اليه ، وكان من خيراته حنف والأطاف ، ومن أنفس
الجواهر والأعلاق . ولا عجب فالسيد المويلحي رحمه الله

عليه وهو حجة في أدب القلم وأدب النفس منحدر من الصليبين
الطاهرين فهو من نسل الصادق والصديق ، وأنعم بآبائه
وبنسبه العريق ، وأكرم بهذا السبب الوثيق ، وهنيئاً له
الشرفان شرف الدنيا وشرف الآخرة .

والمويلحي هو من تعلم في سمو النفس ، وقوة الإرادة ،
والكبر عما يشين ، الى تأدب بما أنزل على المصطفى عليه
الصلاة والسلام من كريم القول وبلغ الكلام .

فلو أنه كان في القرون الأولى ، وشاء أن يضرب
الجزية على الصاحب بن عباد ، والخزاز زمي ، والبديع ،
لما تلكأوا في الدفع ، ولا دفعوا رأسه بالمنع ، ولبايعوه
اماماً وتوجوه أميراً وساروا في ركابه . واجتمعوا
في رحابه .

ولقد كانت البلاغة في العصر الحديث في حاجة الى
مثل محمد المويلحي الذي جدد شبابها ، وألبسها جلبابها ، وقد
كانت شمطاء عارية ، عيوبها بادية ، فما زال بها يؤاسيها
ويسليها ويتوجع من أجلها حتى خلقها الله خلقاً جديداً على
يده ويد والده وأستاذه المرحوم السيد ابراهيم المويلحي
سيد كتاب العربية في عهدنا والعهود الماضية الى الجاحظ .

وكان صاحب (علاج النفس) أمة وحده لا يغتاب ولا ينم، وللكرامة عنده المقام الأول. فمارؤى في موضع يزرى بالشرف، أو ينافى الكرامة، وكان له حسن ذوق، ولطف حس، في كل شيء، في حديثه، في اختيار أصحابه، في لباسه، حتى في طعامه وشرابه، وكان جليداً، صلباً، صبوراً، قاسياً على نفسه إلى حد لا يطاق الصبر عليه، وما ظنك برجل عكف في بيته حولاً كاملاً لأن يده لا تطول، ولو شاء أن يلعب بالذهب لتم له ذلك، ولكنه لم يكن يحب أن يتطول عليه صديق يده له عنده أو عارفة يسديها إليه.

هذا هو السيد محمد المويلحي وما خفى من جوانب الرحمة فيه وصدق القول، والوفاء للأصدقاء أكثر مما كان ظهر للناس، وكان رحمه الله يستحي إلى حد الخجل من الثناء، فما أجدر شباب اليوم أن يتحلوا بسجاياه، وأن يباركوه في قبره بطلب الرحمة له، فقد كان في سمو الروح أسوة، وفي علو النفس قدوة.

وان تك أفنته الليالي وأوشكت فان له ذكراً سيفنى الليالي
اسماعيل شيرين

مِهْد

هذه رسالات في الأخلاق، لعلاج النفس، وطيب
العيش، حتى تتسنى لها سعادة الحياة. لم ننشئها من لدنا
إنشاء، ولم نبتدعها من عندنا ابتداعاً، وإنا همى ضوء مقتبس
اقتباس انقطاعنا إلى المطالعات في كتب الأوائل والأواخر
من شرفيين وغربيين، وثمره مجنية من مشاهدات الزمن،
وتجارب الأيام، مما جعلناه لنفسنا درسا في تقويم النفس،
عسى الله أن يكون قد نفعنا بها شيئاً قليلاً، والقليل في
شفاء النفس كثير، ولا فضل لنا فيها الا مثل فضل النحل،
تجنى من أثمار الأشجار، وأكمام الأزهار، ما تحوله في
بطونها، وتمجه للناس شهداً جنياً فيه شفاء للصدور،
ونحن نعرضها اليوم على أعين الناس عسى أن ينتفعوا إن
شاء الله منها بالشيء الكثير، وليس تقديمنا إياها لهم، في
منزلة أوامر الطبيب للمريض، بل في منزلة دواء مجرب،
من مريض إلى مريض ومن عاجز مستزيد إلى طالب مستفيد.

محمد المويلحي

بِسْاطِرُ الْفَلْسَفَةِ

وقع للحكمة والفلسفة بيننا ما وقع لسائر العلوم من
الغموض والابهام، والحشو والتعقيد، والزيادة والنقصان،
واختفاء المتون تحت كثافة الشروح، فاذا جرى ذكر
الفلسفة بين الناس يوما عدوها علما من العلوم الزائدة التي
يشتغل بها بعض أفراد يختصون بها دون عامة الناس، ثم
اختلفوا في ماهيتها، فمنهم من يراها أصلا يتفرع عنه
الاحاد والزندقة. ومنهم من يعتبرها آلة للشك وطريقة
عوجاء سوفسطائية يقلب المشتغلون بها الحق باطلا،
والباطل حقا، كما يشتهون، بسعة احتيالهم في صناعة البرهان.
والحقيقة أنها ليست في شيء مما قرت عليه ظنون الناس
وأوهامهم فيها، وأنها هي العلم الواضح، والنور الساطع،
الذي يهتدى به الانسان الى سعاده ويسترشد الى جمال النظام
في العمران، وهو علم عام لا تخصص به فئة دون فئة، وفي
قدرة كل إنسان أن يتناوله ويأخذ بأحكامه، وإن في نفس
كل امرئ لقبسا من الفلسفة وان لم يكن فيلسوفا، كما أن
في نفس كل إنسان خيالا من الشعر، وإن لم يكن شاعرا.

وينقسم هذا العلم الى ثلاثة علوم : علم الآلهيات ، وعلم الطبيعيات والرياضيات ، وعلم الأخلاق . أما علم الآلهيات فخاص بالدين ، وأما علم الطبيعيات والرياضيات فهو علم شائع معروف ، وأما علم الأخلاق فهو سياسة النفس ورياضتها على الفضيلة ، وهو أهم هذه الأقسام لتوقف سعادة الانسان عليه في حياته .

ومما يغنيننا عن الشرح والاسهاب ، في أن أهم ما يطلبه الانسان من الفلسفة هو الأخذ بفضائل الاخلاق ومحاسنها ، والتخلي عن رذائلها ومساوئها ، أن نذكر شيئاً من سيرة شيخ الفلاسفة ، الذي بلغ درجات الكمال الانساني ، بسياسة نفسه ورياضتها على الفضائل .

كان سقراط رجلاً نحاساً للتماثيل في أول عمره ، فبرع في صناعته ، وفاق فيها الأقران . ولما بلغ الثلاثين من عمره ، أحس من نفسه ميلاً الى البحث عن الحقيقة ، ينشدها أنى وجدها . وكفل له بعض أغنياء « أثينا » ما يكفيه مؤونة السعي وراء رزقه ، فانقطع للدرس والبحث ، حتى بلغ درجة عالية أرتته أن مباحث الفلسفة بين العلماء في زمانه ، لا تكفي لهذيب النفس وسعادة الحياة ، لانحصارها في أوليات .

العلل والأسباب ، فصرف اجتهاده الى أن ينزل بها ، من
المجردات الى الموجودات ، التي يسهل على الانسان تناولها
بحكم الطبيعة ، فقصر همه على علم الأخلاق ، الذي يرشد
الناس الى سعادتهم في معيشتهم ، بوقوفهم عند حدود
الفطرة الغريزية ، ومعرفة الحقائق ، واستفضاع الرذائل ،
واستبشاع الأباطيل والأضاليل ، وكف الأذى ، ومقت
الظلم ، وحسن الطاعة للشرائع الوطنية ، واحترام واجبات
الانسانية ، ورياضة النفس على الصبر والتجملد ، وكبح
جماحها عن الاسترسال في الشهوات ، والقناعة بالكفاف
دون التهالك على الثروة والغنى ، مع الشجاعة والاقدام
على ما يدفع المنكر والمكروه عنها وعن الناس .

وكان القول عنده في الفلسفة مقرونا بالعمل ،
وتأدية الواجب ، بخلاف الباحثين من أهل زمانه في الفلسفة ،
حتى انه ترك دروسه ثلاث مرات ، وانتظم جنديا في سلك
الجنود ، لدفع العدو عن بلاده فكان محل الإعجاب لما أظهره
من الشجاعة ، ومما يذكر له في تلك المواقع التي شهدها ، أنه
رأى أحد الجنود في أيدي الأعداء مشخنا بالجراح ، فقاتل
عنه حتى انتزعه منهم ، ولم يكتبف بذلك بل نزع عن صدره

شارة الشرف التي نالها الحسن . بلائه ، وحلى بها صدر
الجريح ورآه أولى بها منه . ومن موافقه أيضا أنه بقي يقاتل
حتى لم يبق من جيشه كله في ميدان القتال غيره مع القائد ،
ووجد في ساحة الميدان أحد القواد ساقطا عن جواده ،
فحملة على كتفه حتى وضعه في مأمن .

تلك درجته في الصناعة ، وهذه رتبته في الشجاعة ،
واليك منزلته في الثبات للدفاع عن الحق ، فمن ذلك أنه لما
صار عضوا بالانتخاب في مجلس الشيوخ ، ذهب مع أعضاء
ذلك المجلس لرأسه اجتماع عام من أهل أئينا ، عقده
لمحاكمة بعض القواد ، الذين اتصروا في موقعة بحرية
اتصارا هذورا ، ولكن حالت العاصفة بينهم وبين دفن
موتاهم ، وكانت شريعة أئينا تقضى بحكم الاعدام على كل
من يغفل دفن الموتى ، فأرادوا تطبيق هذا الحكم على هذه
الحادثة ، فقام سقراط للاخذ بناصرتهم وجعل يدافع عنهم
ويظهر ما في هذا التطبيق من الخطأ الفاحش والظلم
المبين ، وبلغ من تهور العامة وتهوسهم في الاصرار على
معاينة أولئك القواد بالاعدام أنهم طلبوا أن يسرى
هذا الحكم على كل من يعارض في تنفيذ ذلك القانون ،

فدفعت سقراط شجاعته الى الوقوف موقف المعارضة وحيدا في هذا الملتحم ، غير مبال صياح العامة ولا مكترث لو عيدهم ، وظل يناضل ويشهر بقسوة هذا الحكم الذي يضع من قدر من يعمل به ويلبسه ثوب الخزي والعار ، ويسمه بميسم نكران الجميل لمن كانوا سبيا إلى انقاذ الوطن ورد هجمات العدو عنه .

هذا مثال القاضى العادل فى سقراط ، ودونك مثال الرجل الحر بين أهل وطنه : تغلب أهل اسبارطه على أهل أثينا ، وأسقطوا فيهم حكومة الشورى ، وأقاموا لهم حكومة استبداد مؤلفة من ثلاثين حاكما ، انتخبوهم من بين المترفين من أهل أثينا ، فكان من بوادر أعمالهم ، أن حظروا على سقراط درسه فى تربية الشبان . فلم يثن ذلك من عزمه ، بل قام فى وجه وعيدهم غير مبال إياه ، واستمر على تحريض الأمة لاسترداد حريتها وعزل هؤلاء الظلمة ، ولم يرعه ما راعها من إطلاق يد الظلم فيها بالقتل والفتك ، حتى ثارت بفضل ثباته على أولئك الحكام فقتلت منهم من قتلت ، وطردت من طردت ، وكان الرجل فى أوقات تخليه عن الاشتغال بالمسائل العامة ، يعيش بين

الناس معيشة البساطة الفطرية، قاصرا همه على تعليم
الشبان من أهل ائتنا، ويرى أنه يخدم وطنه أحسن خدمة
بحسن تهذيبهم وتربيتهم، وقد أخذ على نفسه أن يهدم
مارسخ في الأذهان من الأضاليل والأباطيل، التي تلحق
العار بالنوع الانساني. فما كان أجل منظره عند ما كنت
تراه يخطب الناس منتقدا أعمالهم مقبجا أفعالهم داعيا
إياهم الى التعلق بالفضيلة من طريق الوقوف على الحقائق،
وهو رجل فرد بين أمة ضالة لا جاه له ولا مال، غير
متطلع إلى اطماع، ولا متطالب لدنيا. وعاش زمانه لا هم له
الا الوصول الى هذا الغرض الجليل يسير فيه تارة
بالحدة، وتارة باللين. على حسب ما يمله عليه حسن النظر
وصواب الرأي في المنفعة العامة. ولم يكن كأمثاله من
العلماء الذين يتخذون لدروسهم مكانا خاصا، ووقتا معينا،
بل كان يلقي على الناس دروس الفلسفة والحكمة، في
الطرق المسلوكة، والأسواق العامة، وكان ينتهز كل فرصة
لارشاد القاضى في وظيفته، والحاكم في منصبه، والصانع
في حرفته، والزارع في حراثته، وينزلهم منه عند النصح
والارشاد منزلة الأبناء والأخوة في الحنو والاشفاق،

لا منزلة الطلبة ، في خضوعهم للاستفادة والتعلم ، وكان
يستدرجهم في الحديث ويستجلبهم ، فلا يشعرون إلا
وقد بسطوا له ما تكنه صدورهم ، من خفايا سيرتهم ، ثم
يتلقون عنه ما يغرس فيهم الاعتقاد ، بأن سعادة الحياة
بين كل الطبقات ، لا تتم لاحد الا بالعمل الصالح في نفسه ،
والعمل الصالح بين أهله وصحبه ، والعمل الصالح بين
أبناء جنسه ، وبما كان يكرره على أسماع العامة في موافقه
بينهم قوله لهم :

« اعلوا أنكم إذا رضيتم أن تكونوا عبيدا للشهوات
فلا سبيل لكم الى الفضيلة التي تصعد بكم الى معارج
السعادة . ولا تأثير لصوت العقل والحكمة ، إلا في
النفوس الطاهرة ، التي تسعى جهدها للتخلص من قيود
الشهوات ، ولا وصول الى ذلك الا باطراح فضول
العيش ، بما لا حاجة اليه في الفطرة الطبيعية ، فاذا بلغتكم
ذلك من أنفسكم بطول التفكير والتمرن ، انجالت عنكم
ظلمات الجهل ، وانقشعت سحب الاضاليل . وليست قوة
الشهوات هي التي تغلب على النفس ، ولكن الجهل هو
الذي يضعف النفوس ويذلها ويغلها في تلك القيود ، فعليكم

التغلب على سلطان الشهوات الذي يسلطه عليكم الوهم
والجهل لتخرجوا من الظلمات الى النور وتذوقوا حلاوة
الفضيلة التي بها تمام السعادة »

ثم انتهى أمر سقراط ، الى ما ينتهي اليه أمر كل عالم
فاضل بين نصراء الجهل وأهل الأهواء والأغراض ، من
الحسد له والحقد عليه والسعاية به ، ليتخلصوا من
عواقب نصحه ، وإرشاده للناس ، وكشف الضلالات
عن أبصارهم حتى يبقوهم على ما هم فيه من الجهالات ،
ليسهل لهم التسلط عليهم وحفظ مكانتهم فيهم ، وولوع ذوى
الجهل بذوى الفضل قديم في العالم ، فكادوا له ما كادوا ،
وائتمروا به فأشاعوا عنه ما يستنكر لديهم من الأقوال ،
ويستقبح من الأفعال ، حتى أثاروا عليه طبقات الجهلاء
وأعلنوا كراهته وبغضه ، وطلبوا محاكمته ، فتقدم أحد
المفسدين منهم الى مجلس الشيوخ وادعى عليه أنه ينكر
دينهم ولا يؤمن بألهمهم وأنه يفسد عقول الشبان والفتيان
ويبطل عقائدهم ، بما يلقيه عليهم من الأقوال الباطلة
والأفكار المضلة . فانخدع مجلس الشيوخ بهذه المفتريات
وخاف أعضاؤه على أنفسهم من ثورة العامة فطاوعوهم

و حكموا عليه بالموت بتناول السم . وهنا موقف الإعجاز
في مقابلته للحكم بالرضا والقبول . وقد عرض عليه بعض
تلاميذه أن يجدوا له مخلصا ، ويعدوا له أسباب الفرار ،
من هذا العقاب الجائر ، والظلم الفادح ، فزجرهم وقال لهم
لست أَرْضَى أن أكون مثالا للناس في الخروج على حكم
القانون ، ومن ارتضى أن يعيش في بلد فليمثل لما تقضى
به شريعته واستمر في تدريسه كأحسن ما كان ، حتى حان
وقت التنفيذ ، وكان يلقي على تلاميذه في ساعته الأخيرة
مقالته في خلود النفس ، وتناول السم بيده وهو ساكن
الجوارح مطمئن النفس باسم الشجر .

وكان مثل سقراط ، في فأسفته كتل ضوء الشمس
الساطع في هذا الوجود ، فلها مات تحلل هذا الضوء الى
طيف ، فأخذ كل تلميذ من تلاميذه بلون منه ، فالكل منه
مقتبس واليه راجع ، وان اختلفوا اختلف تلك
الألوان بتفرقهم فانهم يمتزجون امتزاجا بتجمعهم ، فذهب
افلاطون بفلسفته ، الى القول بخلود النفس ، وسما بها
الى عالم المجردات ، ورأى أن سعادة النفس قائمة على
الاتصال بذلك العالم العلوى .

وتصير « انتستين » فلسفته على علم الأخلاق ،
موجعل سعادة الحياة ، في احتقار الجاه والمال ، ونبذ
الشهوات ، والعمل بالفضيلة ، ولما كانت الغاية عنده من
هذا الوجود ، هي بلوغ سعادة النفس ، فقد قرر أن الفضيلة
ووحدها هي الطريق الى تلك الغاية ، وأن ما كان من أفعالنا
خارجا عنها فهو إما ضار وإما غير نافع .

وذهب « اريستيب » الى أن اللذة ، هي الغاية المقصودة
من الحياة ، وأن شعور الانسان هو المعيار الذي تقاس
به اللذات ، فيترك الانسان أدناها لأعلاها . ولو قيل إنه
انحرف عن مذهب أستاذه سقراط بهذا التحديد ، إلا
أنه عاد فقيده بأنه لا بد للانسان أن يجعل من نفسه ،
سلطانا له على لذته ، ولا وصول الى ذلك الا بانماء القوى
العقلية بالتربية .

ثم جاء « ارسطو » وهو تلميذ « افلاطون » ، فتوسع
في مذهب أستاذه وجعل أساس فلسفته البحث عن العلل
والمعلولات ، وسمى كل بحث منها علما ، ليرجع بذلك كله
الى علة العلل ، فجمع العلوم البشرية في دائرة فلسفته ،
فاستوعب بتأليفه التاريخ الفلسفي ، والمنطق ، والالهيات

والطبيعات ، وتركيب الأجسام والنباتات ، والأخلاق ،
والسياسة ، والآثار القديمة ، والتاريخ الأدبي ،
واللغات ، والنحو ، والبيان ، وفلسفة الفنون . وقد جعل
لكل نوع من هذه الأنواع ، روابط وقواعد علمية ،
ويقال إنه لم يضع وحده كل ذلك ، بل أعانه عليه قوم
آخرون في عهد الإسكندر تلميذه ، لاتساع جاهه ، وكثرة
ماله ، والسعادة عنده تنحصر في السعي والعمل على
مقتضى الفضيلة ، وارتقاء النفس الى العلويات .

ثم جاء « ديوجين » وهو تلميذ « انتستين » المتقدم
ذكره ، وذهب الى أن الفلسفة كلها في الزهد ، والحرمان
الاختياري ، وفي ازدياد ما اصطلاح عليه الناس من عادات
وآداب واصطلاح ، وقد دعا الناس تابعيه بالكلايين ،
لأنهم كانوا يهرون وراء الناس بذكر معانيهم ونقائصهم ،
ومجاهبتهم بالتقريع والتعيير ، وقد جعل « ديوجين » نفسه
لوحا يقرأ الناس فيه فلسفته حاضرة ، فكان يمشي بينهم
عاري البدن ، حاسر الرأس ، مكتفيا بالحشن من القوت ،
يتوسد في نومه عتب الهياكل . وقد وصفه أنلاطون فقال
عنه « ان سقراط يهذي ويهتر » ، فان سلطانه على نفسه

ورياضتها على احتمال المشاق ، وتمرينها على الحرمان
الاختياري ، وتخلصه من ربة الشهوات ، كان نصيبه
الأوفر من ميراث سقراط ، وقاعدة فلسفته من أجل
القواعد ، وهي أنه لا ملك للإنسان إلا ما تملكته
نفسه ، لا ما تملكته يده ، لأن ما يملكه الإنسان في
الحقيقة ، هو ما كان في نفسه لا في يده ، وما عدا ذلك فهو
في يد الدهر . وكان يقول في كلامه اني لأسمع صوت الدهر
يناديني ، « ليس بين المخلوقات كلها ، من هو خارج عن سلطاني
إلا هذا الكلب العتور » ، (يعنى نفسه) . ووقع مرة أسيرا
في يد الأعداء ، فعرضوه للبيع في السوق ، فكان إذا سأله
من يساومهم فيه « ماذا تحسن من عمل » ؟ قال « أمر الناس
وأنهاهم » . ولمح في تلك السوق شريفا من أشرف القوم
في زينته وخيلائه فقال « يبعونى من هذا فاني أراه يحتاج
الى سيد » وكان البائع ينادى عليه في السوق « من يشتري
هذا العبد » ، وهو يقول « من يشتري سيدد » ؟ ثم قال للذى
اشتراه « اسمع لما أمرك به منذ اليوم وتمبله بالطاعة » .

ثم جاء من بعدهم « ابيقور » فجعل لباب الفلسفة في
علم الأخلاق ، وأن الغرض الوحيد منها هو البحث عن

الطريقة التي تجعل الانسان سعيدا ، في حياته ، ولم ينظر الى بقية أقسام الفلسفة ، إلا من هذا الجانب ونبد ما وضعه أرسطو من القواعد وما حدده من الحدود ، وربطه من العلوم بالمنطق ، ورأى أنه يمكن الانسان أن يهتدى ، بغير هذه القواعد ، إلى معرفة الحقيقة كما هي ، ووضع في ذلك قانونه المشهور ، وملاك السعادة عنده اللذة ، وهو يقول ، إن من تمنع في أطوار الحيوانات والأطفال ، علم أن الطبيعة لم تجعل لنا حدا نسعى وراءه سوى تلك اللذة ، وهي اللذة الجسدية المحسوسة ، ويقول ايضا . « انه لا يعرف للسعادة وجودا في غير تلك اللذة » ، ولكنه وضع فرق بين اللذة في الحركة واللذة في السكون ، وتعريف هذه اللذة عنده « أنها ليست في الانتقال من حالة التعب الى حالة الراحة ، بل هي حالة البقاء على الراحة » ، يعنى بقاء الجسم في مركز التوازن ، وبعبارة أخرى هي في الراحة التي يجدها الانسان عقب قضاء رغبته ، او هي فقدان الألم بأنواعه ، أو هي حالة سكون النفس ، لا حاجة بها الى شيء ، وهو لا ينكر وجود لذة للروح بجانب لذة الجسم ، ولكن لا فصل عنده بينهما ، فان لذة الروح ليست إلا

لذة الجسم التي صورناها لك مرسومة في الحافظة ، أو مادية
في الخيال ، أو مرجوة في المستقبل ، وأن مدة الزمن هي
الفارق المعنوي بينهما . وعلى هذا تكون اللذة شيئاً ثابتاً
موجوداً تحت تصرف الروح . ولكن ما هو طريق
الوصول الى هذه اللذة المزدوجة ، وهذه السعادة الدنيوية ؟
يقول « ابيقور » « إن الطبيعة بفضلها وعطفها علينا ، قد
وضعت في أيدينا كل الوسائل ، ومهدت لنا كل الطرق
للوصول إلى تلك السعادة . وجماع الأمر كله في هذا
الطريق ، أن نميز بين الرغبات التي تدور في صدورنا ،
وتعرف ما هو طبعي ضروري ، مثل الأكل والشرب ،
وما هو طبعي غير ضروري ، كالرغبة في أصناف الأطعمة
والوانها مثلاً ، وما هو ليس بطبعي ولا بضروري ، مثل
فضول العيش وكاليساته . فإذا عاجلنا النفس للتخلص من
أسر الرغبات في القسمين الأخيرين ، سهل علينا الوصول
الى منتهى طريق السعادة . لأن الجوع والعطش « هما
الشيئان الطبيعيان دون غيرهما » ومن ذا الذي يعجز ان
يحد كسرة من الخبز ، أو جرعة من الماء ، فالقناعة والزهد
والتقشف وراحة البال هي الغاية التي تنتهي اليها فلسفة

« أبيقور » المؤسسة في ظاهر الأمر على اللذة . ويشهد له أعداؤه أنفسهم بأنه عاش هذه العيشة مطبقا أفعاله على أقواله ، ولكن جاء بعده من تلاميذه من خلط فيها ، وانحرف بها الى فلسفة « اريستيب » بما جعل الناس يسمونها « الفلسفة الشهوية » .

هذا بعض الشيء من أصول الفلسفة ولبابها ، في بساطة ووضوح ، دون التعقيد والابهام ، والاستغراق وشوائب الجدل ، التي عمد اليها المشتغلون بعلوم الفلسفة فيما بعد حتى طرحوا الفاسفة جانبا ، واقتصر بعضهم فيها على علم المنطق واعتبروه أساسا لها ، مع أنه آلة من بعض آلاتها لميزان القول والفكر ، وغايته تمحيص التعبير من الخطأ وهو أشبه شيء بآلة النجوى في اللغة وقسموه ، إلى خمسة اقسام . قسم يؤدي الى الحق والصدق في سائر احواله ، ويسمى البرهان ، وهو صناعة اليقين . وقسم يؤدي في أكثر احواله الى الصدق ، وقد يكذب يسيرا ويسمى جدلا ، وهو صناعة الظنون . وقسم يؤدي الى الحق مرة ، والى الباطل أخرى ويسمى خطابة ، وهو صناعة الاقناع . وقسم يؤدي في حالاته الى الكذب ،

وقد يصدق قليلا ، ويسمى سوفسطائيا ، وهو صناعة
المغالطة ، وقسم يؤدي الى الباطل المحض ويسمى شعريا
وهو صناعة الخيال .

فهذا العلم الذي يشتغلون به من الفلسفة لا يفيد
الغرض المقصود منها ، وهو تثقيف الأخلاق ، وتهذيب
الطباع ، والسير على مقتضى الفضيلة ليصل الانسان بذلك
الى سعادة الحياة وسعادة الممات .

وما نفع الانسان من تلك القياسات والمغالطات في
شفاء النفس من رذائلها ، وتحليلتها بفضائلها ؟ ولعمري لو
أنتك جئت بألف عالم من علماء المنطق ، وجئت أمامهم مثلا
بهذا الذي يعرضه الفقر بتابه ، وهذا الذي يقدم للقتل بين
المنطق والسيف ، وهذا الذي يشكرو ويئن وهو تحت أثقال
الذهب التي ابتزها بطرق الخيانة والندالة واكتنزها بحبائل
الغش والخداع ، وهذا الذي يهاب الخطوب ، ويفزع من
الكوارث ، وهذا الذي أضناه المال والسأم وهو في سعة
من جاهه وماله ، وهذا المريض ، وهذا الجريح ، وهذا
الأسير ، وتلك الشكلى ، ثم أخذوا ينثرون عليهم ما في
كتبهم من الجدل والسفسطة التي قضوا العمر في طلابها

وينفثون ما في صدورهم من الأقيسة والقضايا أكان ذلك ينفعهم في شيء؟ أكان يشفيهم من أدوائهم، ويسكن من أوجاعهم، فينقلب البائس وقد انفرج بؤسه، والحزين وقد سرى عنه، والمحتاج وقد خف عنه عبء فقره، والمعذب وقد قويت عزيمته على احتمال عذابه، والخائف وقد ذهب عنه روعه، والغنى وقد علم ان الغنى غنى النفس لا غنى المال؟

وماذا يفيد الناس في هذا الموقف، أقوالهم المشهورة وقضاياهم العقيمة في منطقتهم، مثل قولهم «لو أردنا أن نقيم ألف دليل على أن هذه الهضبة من الذهب لما عز علينا»؟ وماذا يكسب الناس من هذه المغالطات التي يرددونها في كتبهم مثل قولهم: «لا يودع السر عند الرجل النائم، بل يودع عند الرجل الحازم، والحازم يقظ، فالحازم إذن لا ينام» أو كقولهم في هذه القضية أيضا «كل ما لم يكن قد ضاع منك فهو معك. وأنت لم تضع لك قرون، فعندك إذن قرون»، ودعك من قولهم في الغناء، «لا تسمع، فتطرب، فتجود، فتفتقر، فتغتم، فتعتل، فتموت»، وما أغنى أولئك المصابين في أنفسهم عن هؤلاء الذين

يشغلون بهذا اللغز الباطل من الفلسفة، وما أحوجهم الى
فيلسوف واحد يعلم حقيقة الفلسفة وبساطتها، فيهديمهم
الى ما يهذب نفوسهم بالفضائل، وينقيها من الرذائل،
ويفيض عليهم من أشعة الحكمة، والموعظة الحسنة،
ما يقشع عنهم ظلمات ما هم فيه من الأحزان والآكدار،
ويكشف لهم عن حقائق الأشياء في هذه الحياة، ويبين لهم
ما هو الضروري من العيش، وما هي الفضول والزوائد،
التي أورثت الانسان أنواع البلاء، وأفانين الشقاء، وذلك
هو لباب الفلسفة، وذلك هو علم الأخلاق، وانه لقريب
التناول، سهل المأخذ، لا يستعصى على الفهوم، ولا تكمله
القرائح، بل هو في سهولة قصة من القصص، أو حكاية
من الحكايات؛ لا يتعذر على أى إنسان فهمه، لأنه يتناول
أدوار حياته من أول عمره الى منتهاه، ويرشده الى الفضيلة
التي لا يمكن بغيرها، أن يعيش الانسان سعيداً ويموت
سعيداً. وهذه الفضيلة تقوم على أربع دعائم: الأولى،
العقل، وهو التمييز والروية وصحة الحكم. والثانية العفة،
وهى الورع وضبط النفس عن الشهوات المؤذية الفانية.
والثالثة الشجاعة، وهى الاقدام والثبات عند نزول

المكروه . والرابعة العدالة ، أى الاستقامة وهى صحة
الأفعال ووضعها فى مواضعها اللائقة بها .

والفضيلة تنحصر بالاجمال فيما يجب على الانسان
للانسان ، وفى قيمة الأشياء فى حد نفسها ، وفى تأثير الأشياء
فى النفس ، وإحساس النفس إياها . وفيما يصدر عنها من
الأعمال ، وفى أن نعلم المعنى المسمى خيرا ، وهو الأمر
المرغوب فيه لذاته . والمعنى المسمى شرا ، وهو المرغوب عنه
لذاته ، والمعنى المسمى نافعا ، وهو السبب المؤدى الى الخير ،
والمعنى المسمى ضارا ، وهو السبب المؤدى الى الشر ،
وكل إنسان فى الوجود ، قادر على مزاولة الفضيلة ،
والسير فى طريقها ، وقد وضع الله سبحانه وتعالى ،
بذورها فى فطرة الانسان ، وغرس جذورها فى الصدور ،
لتنمو فيها بالممارسة ، ولكن من سوء حظ الانسان أن
انحرف عن الطبيعة ، وتسلب من الغريزة ، واستسلم
للأهواء الباطلة ، والأوهام الفاسدة ، فغطت على بذور
تلك الفضيلة ، ونمت مكانها بذور الرذيلة .

وجملة القول فى هذا المجال المتسع ، أن علم الأخلاق
هو المقصود بالذات من الفلسفة ، وان أصوله قديمة فى العالم

اهتدى اليها منذ الزمن الأول فلاسفة الهند، وفلاسفة
الصين، وفلاسفة اليونان، وفلاسفة الرومان،
وإذا كنا خصصنا بالذكر في كلامنا عن الفلسفة، فلاسفة
اليونان، فلا تتم المصدر الذي ارتوى منه فلاسفة الرومان،
ومن بعدهم فلاسفة أوروبا في العصور المتأخرة إلى يومنا
هذا، فكلهم عيال عليهم، ولم يبرز العلماء الاوربيون،
وان كانوا برزوا في كل شيء، على علماء الاخلاق في
الازمان السابقة، وكل ما هنالك، أنهم فرعوا على تلك
الأصول، وشرحوا وفسروا، وأطنبوا وأسهبوا، ولكنهم
لم يأتوا بأكثر من الطراز على الثوب، والهداب على الستر.
والكل إجماع على أن محاسن الأخلاق لا تأتي الا من
طريق الفضيلة، التي بينا لك أركانها، وأن سعادة الحياة
لا تنال الا برياضة النفس عليها، حتى تصير فيها ملكة،
وأن كل إنسان قادر على مباشرتها، والسير في طريقها،
وأن بذورها كامنة في الصدور بفطرة الخالق التي فطر
الناس عليها، لتنمو فيها بالممارسة، ولكن من سوء حظ
الانسان، أنه تزحزح عنها، واشتغل بالباطل في اجتماعه،
وغفل عن حقيقة سعاداته، وضل طريقها، وظل يبحث

عنها من غير وجوهها، وينشدها ولا يدركها، إذ خرجت
النفوس عن أطوارها، وتسالت من غرائزها، فأصبحت
بالأمراض المختلفة من الأهواء والأطماع والآمال
والآماني، فكان لا بد للإنسان في معالجة نفسه، أن يرتد
إلى حكم الطبيعة، وأن يبحث ويفكر، ويحكم عقله،
ويشحن إرادته، ويغلب القوة الحاكمة، على القوة الواهمة،
ويكشف بنور الحقيقة، ظلمات الجهل والوهم، ويروض
نفسه على أحكام الفضيلة، فلا يشحن نفسه بالرغبات، ولا
يضعفها بالرهبات، ولا يسلمها للهموم والغموم، ولا
يتركها للجزع والفرع ولا يعرضها للوسواس والهواجس،
وأن يعودها ألا تعتبر كل هذه المطالب الطويلة العريضة
التي تشغل أطماع الناس، في هذا العمر القصير، إلا أمورا
تفهم لا يعنى بها، ولا يؤبه لها، ولا يؤثر فيه حرمانه
إياها، وما أحقر أمور الدنيا وأصغرها في جانب الأبدية،
كما أنه يوطن نفسه ويؤهلها لمصارعة الخطوب،
ومنازلة النوازل، فلا يصيبه شيء منها، إلا وقد أعد له
عدته، وقدر وقوعه، حتى لا تفاجئه الأيام بأمر جديد
لم يكن في حسبانها، ولا تباغته بحادث إلا وقد اتخذ لنفسه

هو ثلا من الحكمة ياوى اليه ، ويتدرع بحمصنه ، وأن يكون
هو هو على حال واحد ، وموقف واحد ، أمام صروف
الدهر وبلائه ، وأيام هنائه وصنمائه ، وأن يكون هادىء
النفس ، ساكن البال ، على كل حال ، وان يكون هو المعنى
بقول الشاعر لممدوحه :

وحالات الزمان عليك شتى

وحالك واحد فى كل حال

فالذى يتعين علينا إذن أن نرفع عن النفس أوهامها
وأباطيلها ، وأن نبين لها حقيقة الاشياء ، وأن نرفع عنها
غشاء الاثواء وندفع عنها عدوان الرغبات والشهوات ،
ونكشف عن عوامل الرذيلة التى عارضت نمو الفضيلة
فنشرح أسوأها وأدواءها ، ونصور بشاعتها وفضاعتها ،
ونبسط أضرارها وشروورها ، حتى تعافى النفس
وتستكفها وتبتعد عنها ، وتنفر منها ، فتطهر من الادناس
والأرجاس وتبدو بذور الفضيلة ، وبربوغرسها ، وهذه
الطريقة فى رأينا أدخل على النفس ، وأفعل بها من طريقة
مدح الفضيلة وتزيينها وتبيين محاسنها كما جرى عليه
السلف ، فلو أنك كررت على الانسان فى كل يوم أن الخير

أحسن من الشر ، والحلم أفضل من الغضب ، والصدق خير من الكذب ، لأقربك على ذلك كله ، ولكن طول التكرار لهذه الألفاظ ، لا يترك في نفسه إلا صورها مجردة دون معانيها ، مثل ألفاظ الوعظ في خطب المنابر يسمعها ولا يدرك العمل بها . ولقد كان لي صاحب لا يكذب فسألته يوماً كيف راض نفسه على ذلك ، وقل من لا يكذب في عصرنا ، فقال ما رضتكم ما وما عالجتكم ، ولكنني عاشرت في صباى كذابين يتكران في الكذب ويخترعان ، فكنت أشاهد من تكذيب الناس لها ، وسوء سمعتهم ، وما يحل بهما من الخجل والخزي وما يفعل بهما النسيان ، فيفضح الكذب ، وما يصيبهما من الضرر إن قالوا صدقا ، ويأني عليهما الناس إلا أن يكون كذبا ، وهان أمرهما على أصحابهما فكانوا ينفضون من حولهما ، فشاهدت من سوء أثر الكذب وقبح أمره ، ما كرهني فيه طول الحياة .

وقد آن أن نبدأ ببعض الفصول في هذا الباب ونسأل الله الهداية في المبدأ والمآب .

الغضب

اعلم — وفقنا الله وإياك الى الرشيد — أن ما نسميه بصروف الدهر، وإحزن الزمن، ومحن الحياة، ومصائب الدنيا، وأكدار العيش، وسوء الحظ، يتولد كله من رذيلة الغضب. وكما يقول الفرنسيون عند كل حادثة « قتش عن المرأة » فكذلك اذا رأيت بلية من البلايا أو نازلة من النوازل فابحث فيها تجد أصلها من بذور الغضب.

فالغضب أشنع أمراض النفس كما أن الجذام أشنع أمراض الجسم. والغضببان يشترك مع المجذوم في تشويه الوجه، وطمس معالم حسنه، ويزيد عليه كونه مصدر النوائب، ومنبع الرزايا. وفي الحديث الشريف « فر من المجذوم فرارك من الأسد »، والغضببان أسرع من الأسد بادرة في أنواع الشرور وأسباب المهالك.

وقد عرف أحد العقلاء الغضب فقال: « الغضب جنون متقطع »، وإنك لو نظرت الى الغضببان وهو في اختلاط عقله، واختباط جسمه، وتقلص شفثيه، وبحة

صوته ، وازدحام أنفاسه ، واحتدام وجهه ، وانتفاخ
أوداجه ، وارتعاش يده ، واضطراب أعصابه ، وخفقان
قلبه ، وغليان دمه ، وقذف فمه بالزبد وعينه بالشرر —
لحكمت حكما قاطعا ، بأن المجنون أسلم عقبي ، وأقرب
منه إلى الحسنى . ولو أبصر الغضبان وجهه في المرآة ، وهو
على هذه الصورة المنكرة التي تقذف العيون بالنظر إليها ،
لاستحيا من نفسه ، ولخجل ممن يراه . وقد دخل رجل
على افلاطون الفيلسوف ، فرآه منحنيا ويده سوط ،
وأمامه خادم ، كان شرع في تأديبه ، فلما أدرك الحالة التي
يكون عليها الغضبان في غضبه أمسك عن ضرب الغلام
وكظم غيظه ، وبقى منحنيا ذلك الانحناء ، فسأله الرجل عن
هذه الوقفة ، فقال له الحكيم أردت أن أضرب هذا الخادم
فلما رأيت نفسى على هذه الهيئة ، قصدت تأديبها بالبقاء
عليها حتى تثوب عن غيبيها . وقال النبي عليه السلام « ليس
الشديد بالصرعة وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب »
ولو جعلت لأحد المترفين المتأنقين الذين يقيسون
خطاهم بمقياس ، ويتبسمون بمقدار ، ويتلفتون بميزان ،
ضئعة من الضياع ، على أن يقطب وجهه ، ويقلص شفثيه

وينكر صوته ، ويتابع زفراته ، ويعصر بريقه ، لاستنكف
لنفسه أن يفعله . ولكن أغضبه في دائق تضحك من هذه
الصورة أياما .

وكم فتح الغضب أبوابا للسجن ، ونصب أعوادا
للصلب ، وقتل حبالا للخنق ، وبسط النطع ، وسل
السيف ، وأضرم نارا للحرب وقد يستر العقل آفات النفس
ورذائلها ، إلا الغضب ، فإنه يستر العقل ، ولا يتغلب على
ظهوره شيء بل تراه يشق الجسم ، ويبرز منه شاكي السلاح ،
فيقطع أواصر القرني ، ويفصم عرا الابوة والبنوة ، بل
عرا الامامة والنبوة .

وللغضب درجات يصعد إليها واحدة إثر أخرى ، حتى
يصعق صاحبه ، ويذهب برشده ولبه ، ويطير بصوابه ،
ويجعل جسمه جمره تضطرم وجدوة تشتعل .

والغضب كالحريق أوله شرارة ، ثم يكون منه ما يهول
سماعه ، ويغول منظره . ولهذا يمكن العاقل بادي الأمر
أن يطفى تلك الشرارة ، ولكن يتعذر عليه أن يطفى نار
الغضب ، إذا هي شبت واستعرت .

وأخف الغضب ما انتشر على اللسان ، بالسب

والشتم ، والصياح ، وأشدّه ما يبقى محصوراً في الصدر
يزحم بعضه بعضاً ، فلا يلبث أن ينفجر بالتهور والجنون ،
انفجار المرجل المحصر فيه البخار .

وقد عرف « أرسطو » الغضب فقال « هو إرادة
مقابلة الشر بالشر » ولكننا نرى كثيراً من الناس ، ينشأ
غضبهم عن تصور نية الشر من الغير ، لا عن وقوعه بالفعل ،
وقد يفرطون فيغضبون على غيرهم لتوهم وقوع الشر
منهم ، ومن المبالغات التي تذكر في هذا الباب ، أن أحد
أمراء اليونان القدماء بلغه من بعض حاشيته ، أن أحدهم
رأى في المنام ، انه يكيد له مكيدة ، ويدبر خروجاً عليه ،
فغضب وأمر بقتله في الحال ، وقال لو لم يجمل في خاطره
هذا العمل ، لما رأى في المنام رؤياه .

وهنا يجب أن ننظر الى الغضب ، هل هو من لوازم
الطبيعة البشرية ، وهل يستعان به في بعض الأمور —
فليبان الغرض الأول نقول : إن الإنسان من بين
سائر الحيوانات ، أطبعها على اللطف ، وأميلها الى الرفق ،
مادام باقياً على فطرته وغريزته ، ومن كانت هذه حقيقته .
فلا قسوة فيه ، والغضب قسوة . ولا نرى محبة أكمل من

حبة الانسان للانسان ، والعداوة كل العداوة في
الغضب ، والانسان حريص على السعي في بقاء نوعه ،
وفناؤه في الغضب ، والانسان ميال بطبعه الى التجمع ،
والغضب يشقه عن الجماعة ، والانسان يرغب في نفع غيره ،
حتى يكاد يرمى بنفسه في الاخطار لخلاص من يعرفه ، ومن
لا يعرفه ، والغضبان يرضى أن يقع في النيران إذا جر معه
غيره . وانظر الى الغضب في تأكيد عبد الله بن الزبير لما
اعتنق ما لكا في الميدان و نادى قومه :

اقتلونى ومالكا واقتلوا مالكا معى

فلا يكون الغضب حينئذ من لوازم الطبيعة البشرية -
وليبيان الغرض الثانى نقول : الاستعانة بالغضب في
بعض الأمور ، مما لا تقتضيه الحكمة لأن الغضب شر ،
ولا نفع يخرج من الشر ، ولا نسلم أن ما يعامل به الحاكم
الجناة والمجرمين ، في إيقاع العقوبات بهم ، من قبيل الاستعانة
بالغضب ، لأنها ليست للايذاء ، بل هي تقويم و تثقيف ،
ومن شرائط القضاء ، ألا يجلس القاضى للحكم وهو
غضبان ، وقد يغلظ الطبيب على المريض بالحمية رجاء شفائه ،
فان لم تخفف من مرضه ، منعه الأكل والشرب البتة ، ابقاء

على حياته ، فإن لم ينفعه ، ركن الى السكى بالنار ، والبتير
بالسلاح ، ليحفظ الأعضاء الصحيحة من عدوى ما يجاورها
من الأعضاء السقيمة ، فهو يكوى ويبتير ، وليس في صدره
ذرة من الغضب ، ولا فرق بين الطبيب والحاكم في معاملة
مرضاها . إلا أن الطبيب ينفع مريضه ، بتخفيف الآلام
عنه حتى الموت ، والحاكم ينفع الجماعة بتشديد الآلام على
مريضه (أعنى المجرم) حتى الموت ، فهو يعزر ، ويسجن ،
ويضرب ، وينفى ، ويقتل ، وليس في قلبه خردلة من الغضب
. وإنما هو رفق منه بالجماعة ، يجعل الذين يضرون الجماعة
بحياتهم ، ينفعونها بماتهم ، وهذا معنى قوله تعالى « ولكم
في القصاص حياة يا أولى الألباب »

قال « أفلاطون » : « العادل لا يضر أحدا ، والانتقام ضرر ،
فالعادل لا ينتقم » وإذا كان العادل يستقبح الانتقام ،
فكيف يستحسن الغضب الذي هو علة ؟ ومن هذا يخلص
أن الغضب ليس مطابقا للطبيعة البشرية .

وقد قال بعض الحكماء « إن للغضب مواضع يجب
استعمال جزء منه فيها لأنه ينبه من النفوس حميتها ، ويدفع
بالمرء إلى اقتحام الأخطار في ميادين الحروب . وإذا لم يكن

ثمة غضب ، فلا يكون لشجاعة الأبطال في المعارك من شأن يذكر ، وإن في قدرة العاقل أن يقف منه عند الحد الذي يستعمله فيما يجب استعماله فيه ، وهذا قول باطل ، لأن الغضب شر ، والفرار من الشر أيسر من القدرة عليه بعد الوقوع فيه ، والوقوع في جزء منه عبارة عن الوقوع في الكل ، لأن من لم يقدر على حماية نفسه من الوقوع فيه ، وهو خلومنه ، لا يقدر على وقفه عند حد محدود ، فانه إذا خالط النفس أصبح أمراً لا مأموراً ، وحاكماً لا محكوماً ، والعقل الذي ألقى إليه النفس مقاليدها ، وأسلته زمامها ، ليهديها سواء السبيل ، لا يقوم بوظيفته إلا إذا تغلب على الأهواء النفسية ، أما إذا اختلطت به ، فلا يقدر على قيادة النفس في طريق الحكمة ، لوجود مشارك مناقض له في قيادتها .

ومن الأمور ما يكون تحت حكمنا ثم نصبح تحت حكمه ، مثل كلمة السوء ، إذا لم تتكلم بها ملكتها ، وإذا تكلمت بها ملكتك ، وكالمراء يكون مالكا نفسه على شفا هاوية ، فاذا سقط فيها استحال عليه أن يقف أثناء سقوطه ، وكالقوم يزحف العدو على حدود بلادهم ، ويكون في

طاقهم صده عنها ، فيتهاونون بأمره ، حتى يفتحهم الأسوار فلا
يملكون له دفعا ، وهذا مثال الغضب ، فانك إذا دفعته
قبل أن يخالطك نجوت منه ، وإذا لم تدفعه ملكك .

وقال « أرسطو » « أى اتصار ينال في الحرب بلا
غضب ، وهو المحرك للحمية ، المواد للشجاعة ؟ ولكن
يجب أن يستعمل كاستعمال الجندي الذي يقاد لدى الرئيس
الذي يقوده » فرد عليه بعض الفلاسفة بأن دعواه باطلة ،
لأنه إذا كان الغضب يمثل للعقل ، ويتقاده به ، فليس هو
بغضب ، لأن الغضب يعصى العقل ولا يتبعه ، والغضب من
شأنه المقاومة ، فاذا اندفع بشدته ، فلا يمكن صده مطلقا ،
ويكون بالنسبة للعقل كالجندي العاصي الذي لا يطيع إشارة
قائده بالتقمقر ، فاما أن يكون الغضب قابلا لما يأمره به
العقل من الاعتدال والوقوف عند الحد المطلوب ، وحينئذ
لا يسمى غضبا ، بل يجب أن يسمى اسماً آخر ، لأنه بهذه
الحالة يخرج عن تعريف الغضب ، وهو من الأهواء
النفسية التي لا يمكن العقل كبح جماحها . وإما أن يكون
خارجا عن سلطان العقل غير قابل لسلطته عليه ، فيكون شراً
عظيماً ، لا مساعداً معيناً ، يرتجى منه أى نفع . ولا وجه

التمثيل بالجندى ، لأن الجندى النافع يعرف كيف يطيع
قائده ، باعتباره أعلى نظراً ، وأوسع منه علماً ، والهوى النفسى
لا يعرف كيف يطيع ، كما أنه لا يعرف كيف يحكم ، والعقل
لا يقبل مساعدته ، خارجاً عن سلطته يكون من شأنه
التهور والاندفاع بغير روية ، ولا يقدر على رده ، وخضد
شوكته إلا بمعارضته بهوى نفسى آخر ، كأن يعارض الغضب
بالخوف ، والفتور بالغضب ، والخوف بالطمع ، والعقل
أشرف من أن يشفى داءه بدهاء ، وليس من شأن الفضائل أن
تستعين بالردائل ، وتستند عليها ، فان ذهبت إلى أن الغضب
ينفع إذا كان ملطفاً محمداً ، فكأنك اعترفت بأن فى ماهيته
نفعاً ، ولكن كيف يكون ملطفاً وهو خارج عن سلطة
العقل ؟ ولو فرضنا إمكان تلطيفه ، فما هو النفع المرتجى منه ،
سوى أن يقال شر أخف من شر ؟ وكل هوى نفسى يمكن
تلطيفه لا يقال عنه إلا أنه شر ملطف ، وإن قلت إن
للغضب ضرورة فى ساحة القتال ، قلت لك إن جاز أن
تستند إليه الضرورة ، فضرورته أبعد ما تكون عن القتال ،
لأنه لا يلزم للقتال حدة عمياء ، بل الذى يلزم له شجاعة
مهذبة بالنظام والتشريف . أليس الغضب هو الذى يجعل

المحاربين المتوحشين ، أولى القوة في الجسم ، والصبر على
النزال ، أخط درجات في ميدان الحرب ، أمام الجيوش المنظمة ،
المدرّبة ، وأكثر إلقاء بأيديهم إلى التهلكة ، وثقافة المصارع
تقيه ، وغضبه يرديه ، فإضرورة الغضب إذن لأمر ينال
بالعقل والتدبير ؟ أترى أن القانص الذي يرصد قنيصته
ليصيبها ، أو يعدو وراءها ليصيدها ، يكون به شيء من
الغضب عليها يساعده على اقتناصها ؟ كلا . كذلك المقاتل
لا يحتاج إلى شيء من الغضب يساعده على القتال ، فالعقل
وحده هو الذي يهديه ، والغضب بعيد عن الهدى ، وقد
تبين مما تقدم أن لا منفعة من الغضب في الحرب ، ولا
منفعة منه في السلم يستعان بها في تأدية الواجب .

فان قيل لنا « ألا يغضب العاقل إذا رأى أباه قتيلا ،
أو ابنه جريحا ، أو امرأته سدية » ؟ قلنا إن الدفاع عن
الأهل والاقتصاص لهم واجب ، والواجب لا يقبل شيئا
يزيد في وجوبه ، وإذا بلغ الواجب حده ، فلا مزيد عليه ؟
وكل الذين قالوا بمنفعة الغضب ، اعتقدوا أن الغضب
يشحذ الحمية ، لأداء مثل هذا الواجب ، والعاقل يعرف
الواجب عليه ، وكيف يقوم بأدائه ، وإلا فإنه إذا احتاج في

القيام به الى محرك مثير ، أو محرض ، كانت معرفته به ناقصة ،
وهذا مناف لصفة العاقل .

والأحكام ، والأقوم ، والأجدر ، بمن يقوم بأداء الواجب
في الدفاع عن أقاربه ، وأولاده ، وأصحابه ، وأهل وطنه ، أو
الاقتصاص لهم ، أن يباشر ذلك ، بالتبصر ، والتروى ، وصحة
الحكم ، لا بالتهور والتهيج والثوران ، وما شابه ذلك من
لوازم الغضب . وكم أضل الغضب صاحبه عن نيل غرضه ،
وتأدية واجبه ، وعمى عليه وجه الصواب . فهو كبقية
الأهواء النفسية التي كثيرا ما تكون بنفسها مانعة لقضاء
بغيتها . ومع ذلك كله فإذا فرضنا أن الشر نتج منه خير مرة ،
وأن الغضب كان منه نفع مرة ، فليس فيه برهان على اعتبار
ذلك ، والاعتماد عليه ، فإن من الأمراض ما تذهب به
الحى ، فهل يكون ذلك داعيا الى الرغبة فيها . ؟ وأهون
بصحة تأتيك من طريق المرض .

وكل خير إذا عظم ، عظم نفعه ، وكل شر إذا عظم
عظم ضرره ، فإذا كان في الغضب خير زاد نفعه بزيادته ،
والحقيقة على خلاف ذلك . فما نفعك قليله ، فكثيره أنفع ،
وما أضرك قليله فكثيره أضر ، ويليق في هذا المقام قولهم

« ما أسكر قليله فكثيره حرام »

ولو كان في الغضب خير ، لكان من نصيب العقلاء
من الرجال ، ولكننا نرى أن أكثر من يشتد بهم الغضب
هم الأطفال ، والنساء ، والشيوخ ، والمرضى ، لضعف نفوسهم ،
وكل ضعيف النفس موصوف بالشراسة والملاحاة
والمنافرة والمعاندة .

وقال أحد الفلاسفة : « لا يستطيع الرجل الفاضل أن
يتمتع من الغضب على الرجل الشرير » وعلى هذا القول
يتعين ، أنه كلما ازداد الانسان فضلا . ازداد غضبا ، وأى
داع يدعو ذا الفضيلة الى الغضب على فاعل الشر ، إذا علم
أن الدافع له إلى ارتكاب الشر هو الخطأ ، ومن البعيد أن
يرتكب الانسان الشر لمجرد الشر حتى ولو كان بقصد سيء
إذ لا بد من غاية يقصد بها فاعل الشر جلب منفعة لنفسه ،
والساخط على مرتكب الخطأ ، أولى به أن يسخط على
نفسه أولا ، لانه غير معصوم منه ، ولو انتصف الانسان
من نفسه وحاسبها ، لوجد له أفعالا تستحق اللوم والتعزير ،
والعادل من يحكم على نفسه ، كما يحكم على غيره . والأليق
بالمحبة الانسانية أن يظهر المرء عطفًا على المذنب فيرشده

كالارشاد الأبوي إلى سواء السبيل ، لا أن يتعقبه بالسوء
والأذى . والواجب أن نمحض ذا الشر النصيحة
ليكون النفع عائداً منه على نفسه وعلى غيره ، لا أن نقابل
شراً بشر مثله ، فلا نفع في مقابلة الشر بالشر . وأى
طبيب يغضب على مريضه ؟ وأحوج الناس إلى البعد عن
الغضب ، من كان بيده أمر العقوبة ، لأن العقوبة لا تقع
سوقعها ، إلا إذا كانت صادرة عن العقل ، لا عن الغضب ،
ومصدق هذا ما قاله «سقراط» لخادمه وقد أذنب ذنباً «لولم
أكن غضبان لضربتك فانظر إلى هذا الحكيم كيف
انتظر حتى يذهب عنه غضبه ، ويثوب إليه حله ، حتى
يصح له أن يوقع العقوبة !

وينبغي عند تقرير العقوبة على الذنب أو الخطأ
ألا يكون القاضى بها غضبان منفعلاً ، لأن الغضب مثل
هذيان الحمى في النفس . ولا يجوز لمن كانت هذه حالته أن
يصلح غيره قبل أن يصلح نفسه . وكيف يغضب القاضى
وهو طبيب الهيئة الاجتماعية ، وعنده من أنواع الدواء في
العقوبات ما يعالج به كل نفس على قدر ما يصلحها ، فمن
لم يصلحه العتاب أصلحه التأنيب ، ومن لم يصلحه التعزير

أصلحه الحبس ، وهلم جرا ، حتى إذا رآه عضواً فاسداً لا
ينجع فيه العلاج بتره من جسم المجتمع بالاعدام ، فما معنى
استعمال الغضب هنا ، ووظيفة القاضي هي الشفقة على
المجتمع ، من جهة إصلاحه بتر هذا العضو منه ، والشفقة على
العضو نفسه لراحته بما هو فيه ، وهل غضب إنسان على
العضو المصاب بالأكلة حين البتر ؟؟

ولنبحث الآن عن الغضب هل هو يحدث في النفس
اضطراباً أم اختياراً . وعندنا أنه لا يحدث إلا بإرادة النفس .
لأن المرء لا يستفز الغضب إذا شتمه آخر إلا بعد أن
يتصور ماهية الشتم ، وما يترتب عليه من الإهانة ، وما
يقتضيه من الانتقام من شتمه ، فينتفي بهذا كونه من
الحركات الطبيعية القسرية ، التي هي فوق إرادة الإنسان ،
لأن الحركات الطبيعية مما لا يمكن العقل دفعه ولا التخلص
منه ، مثال ذلك حمرة الخجل ، وصفرة الوجع ، والانتفاض
من الماء البارد ، والاضطراب لسماع ما يحزن ، والفرع
عند الخوف ، والدوار عند النظر إلى هاوية ، فكل هذه
حركات قسرية ، فلو كان الغضب من نوعها ، لما أمكن العقل
أن يلفظ منه أو يتغلب عليه ، إذ الغضب ، كما قدمنا ،

لا يصدر إلا عن باعث من الفكر حصلت به الإرادة ،
ولا مانع حينئذ من استعمال العقل لصفه أو تلطيفه .
والإنسان الكامل لا يستفزه الغضب ، ولا يفعل بأثر
الحوادث في نفسه ، ولا في غيره ، فذاقلت « إن الكمال
يقتضى الفضيلة ، وصاحب الفضيلة يرضى بما يطابقها ،
ويغضب لما يناقضها ، فصاحب الفضيلة يغضب للرديلة »
قلنا إن ذلك مدفوع بأن من أحسن لوازم الفضيلة سعادة
النفس ، ودوام ارتياحها ، فهي بعيدة عن الغضب ، بعدها
عن الحزن ، وإذا كان نصيب العاقل أن يغضب لكل شر
يراه ، فكما ازداد الشر ازداد غضبه ، فينتج من ذلك أن
تكون حياة العاقل غضبا وحرنا كلها ، فيصبح من أتعس
الناس حقا في هذه الدنيا ، وذلك مناف لأخص لوازم
الفضيلة .

وهل يخلو العاقل ، إذا خرج من بيته أن يصادف في
طريقه كثيراً من أنواع الرذائل التي يتصف بها البخيل ،
والسفيه ، والأحمق ، والكذوب ، والمنافق ، والسارق ، وكل
راض برذيلة متبجح بها ؟ وهل يفتح عينه أو يغمضها على
غير الاستقباح والاستنكار ؟ فهو على ذلك لا يخلو من

الغضب طرفة عين . وكيف يكون حاله لو توجه في صباحه الى دار القضاء فوجد المئات من المتقاضين ، هذا يشكو آياه ، وهذا يتهم أخاه ، وهذا ينازع أمه ، وذلك يشهد الزور ، وسواه يدعى الباطل ، والمحامي ينتصر بمهارته لدعواه ، والقاضي يحكم بالعقوبات على ذنوب ربما كان هو أيضا منغمسا في مثلها ؟؟ .

وكيف تكون حاله إذا شاهد في المعاملات أن لا ربح لاحد الا بخسارة آخر ، ورأى المجدود بين الناس محسوداً مكروها ، والمنكود محتقراً مردولاً ، والقوى يدوس الضعيف ، والضعيف يدوس الاضعف ، وكل ميال الى ضرر أخيه ، يعتبر الهفوة منه ذنباً عظيماً والزلة جرماً كبيراً ، والخطأ عدواناً نزيهاً ، والجميع في ميدان حياتهم ، كالمتصارفين في ميدان صراعهم ، بل لا فرق بينهم وبين الوحوش الضارية ، بل هم احق منها بصفة التوحش ، فان كل نوع منها يعيش فيما بينه بسلام وآمان ، ولا سلام ولا آمان بين نوع الانسان ، ولقد رأينا الاسد الكاشر يتودد الى من يطعمه بكل علامات التودد والتحيب بينما نرى الانسان أول فاتفك بمن أحسن اليه وكيف

تكون حال العاقل أيضاً وهو يرى الرذائل والجرائم قد
ملأت الخافقين ، حتى أصبحت الشرائع والقوانين لا تقوى
على وقفها عند حد ، ولا تطيق صدسيلها الجارف ولا تيارها
الجارى ، وليست هذه الرذائل مقصورة على قوم دون قوم ،
ولا فئة دون أخرى ، بل كأن الجمعية البشرية صاح فيها
صائح الشر فلبته من كل مكان ، فصار الضيف لا يأمن
مضيفه ، ولا الصهر صهره ، وأصبح الأخ لا يود أخاه ،
والابن يستطيل عمر أبيه ، ويعده بالأيام لليراث ، والزوج
يفكر فى التخلص من زوجته ، والزوجة تدبر المسكايد
لزوجها ، والجار يخون جاره ، والشريك يغش شريكه .
ثم أضف الى ذلك مطاعم الشعوب بعضها فى بعض ،
وما يقع بينهم من الحروب ، ونقض العهود ، وخلف
الوعود ، والنهب والسلب ، فهل تريد أن يغضب العاقل
ويسترسل فى غضبه على قدر ما شرحناه لك من الرذائل
والكبائر والجرائم والمعائب . لا جرم أنه يكون حينئذ
على حالة لا يفي التعبير عنها بكلمة مجنون . أليس الأولى
بنا أن ننسب ما الناس فيه إلى الخطأ والغلط ؟ ولا يجدر
بالعاقل أن يغضب منه . كما أنه لا يغضب على مماشيه إذا

عثر في الظلام ، أو إذا نادى خادمه ولم يجبه لعارض أصابه
في سمعه ، كما لا يغضب على من نهكه المرض ، والتعب
أو الشيخوخة ، فاذا كان لا يجدر به أن يغضب من هذه
الأمراض الجسمانية كذلك لا يجدر به أن يغضب من هذه
الأمراض النفسية التي تعمى عن الصواب ، وتوقع في
الخطأ ، ولينظر في هذه الحالة إلى الجمعية البشرية نظرة شفقة
ورحمة لا نظرة قسوة ونقمة .

فان قيل : « ليس في طاقة الانسان أن يدفع الغضب بتاتا
ويطهر نفسه منه تطهيراً ، وإن طبيعته البشرية لا تقوى
عليه » : قلنا إنه لا يوجد في الدنيا شيء من المصاعب والمشاق
إلا وفي قدرة الانسان أن يتغلبت عليه بطول الرياضة ،
والممارسة ، ودوام الثقيف أو التهذيب ، فيلين له كل صلب ،
ويسهل لديه كل صعب ، وليس من هوى من الاهواء
النفسية ، وان اشتد وتعاصى إلا وفي الطاقة إخضاعه
على طول الزمن ، بالدأب على المعالجة ، والتدريب . وقوة
الارادة ، وثبات العزيمة . لا يتعاصى عليهما امر ، ولا
يعجزهما بلوغ غاية ، وقد وصل الناس بهما الى ما لا يكاد
يصدقه العقل . فمن الناس من حكم على نفسه أن

ألا يضحك طول حياته ، فبقى عابسا ما عاش ، ومنهم من امتنع عن الطعام الأيام والأسابيع ، ومنهم من حاول الوقوف على رجل واحدة فوقف عليها ليالي وأياما ، ومنهم من يمد ذراعه في الهواء فلا يثنيها زمتا طويلا ، ومنهم من يراه يمشى على الحبل الممدود في الهواء كما يمشى على بسيط الأرض ، ومنهم من يحمل الأثقال التي تنوء بالعصبة أولى القوة ، ومنهم من يطوى البسيطة مشيا على الأقدام ، ومنهم من يغوص إلى قاع البحر فيبقى ممتنعا عن التنفس تحت اللجة زمتا يبحث عن الأصداف ، إلى غير ذلك من الأعمال التي يطول الاستشهاد بها في قوة الإرادة ، وثبات العزيمة ، مع طول الممارسة ، ودوام الرياضة ، مع أن الفائدة العائدة منها قليلة ضئيلة لا تذكر في جانب ما تحمله صاحبها من المشقة في مزاولتها ، فكيف لا يمكن الإنسان بعد ذلك ، أن يستعمل قوته هذه في التغلب على الغضب فيدفعه ويذله ؟ لا ريب أن من وراء التغلب عليه ما لا يحصى من الفوائد العظيمة ، التي منها راحة الفؤاد ، وسكون البال ، وصفاء الخاطر وسعادة النفس .

وليس في الأمراض النفسية ، ما يستعصى علاجه على

طول الزمن . فان القدرة الالهية أودعت النفس البشرية ، استعداداً كامناً لقبول الفضائل ، وبقوة هذا الاستعداد ، يمكن الانسان أن يصلح ما اعوج من أخلاقه ، والتوى من طباعه ، إذا عقد العزيمة ، وراض نفسه على مغالبة الرذيلة ، مع الدأب والمواظبة ، حتى تصبح له عادة . وملكة ، لا يحس معها تعباً أو نصيباً ، ويهون عليه . بذلك كل صعب .

ولا يظن ظان أن طريق الفضيلة وعر المسالك ، بل هو في الحقيقة سهل على من يسهله لنفسه ، وليس على الانسان إلا أن يسير فيه دائماً ، مواظباً ، فيوشك أن يصل إلى غايته ، وكيف يترك الانسان نفسه للتعود والترن على الرذائل ، وهي كلها أذى واضطراب ، ويهجر المراتبة على الفضائل ، وكلها ارتياح وشفاء ، فيدع راحة الحلم بكدر الغضب ، ولطف الرحمة بعنف القسوة ، ويبيت ليله يتملبل على شوك الرذائل ، والعاقبة وخيمة ، والمنقلب سيء ، وفي قدرته أن يبيت ناعم الليال ، هادئ النفس ، لا يخشى ما يجلبه الغضب من كدر العيش ، ونكد الحياة ، فكم أودت كلمة الغضب بقائلها ، وفككت يصاحيها !

إلى هنا ينتهي بنا القول في شرح داء الغضب ، ولناخذ
الآن في ذكر علاجه ، ودوائه فنقول : ينقسم علاج الغضب
إلى قسمين : علاج يمنع من تولد الغضب ، وعلاج يذهب
بحدوثه بعد تولده .

ولا يخفى أن الناس في تركيب أمزجتهم يختلفون
سرعة وبطئا في تولد الغضب ، إلا أن هذا ليس بشيء في
جانب ما يعتورهم من الأسباب الطارئة التي تزيد في تولد
غضبهم كالمرض ، وضعف البنية ، والانهماك في العمل ،
ومداومة السهر ، واشتغال البال بالمطامع والمطالب ، إلى
غير ذلك مما يهيج التنازع في الجسم والنفس ، ويكون
كالبذور للغضب ، ولكن السبب الأقوى هو تعوده ،
فاذا تعود الانسان الغضب أصبحت العادة مساعدة
على نمو بذوره .

أما الاستعداد الطبيعي في سرعة الغضب ، فلا سبيل
إلى محوه بالكيفية ، وأما الأسباب الطارئة فانها تعالج أولا
باصلاح ما فسد من الجسم كيلا يتولد منه كدر النفس ،
ثم تأخذ في دفعها واحدة إثر أخرى ، فمنها تأثر النفس من
شعورها بالاهانة ، ويجب لدفع هذا ألا يعجل الانسان

في الحكم على شيء ، ولا يأخذ بظواهر الأمور ، لأول وهلة ، لأنه ربما وجد في طبيعتها ما يغير منها ، وتكون الحقيقة على خلاف ما تصور في بادئ الأمر . ثم يجب على الانسان أن يتجنب على قدر طاقته ، ما هو قائم في كل نفس من تسرعها في تصديق ما يكدرها قبل التمكن من الحكم الصحيح ، وقد نرى نفوسا كثيرة تجاوزت الحد حتى صار سوء الظن عادة لها وديدنا ، وكم غضب الانسان من صاحبه لا بتسامه ، أو لحظة ، أو لفظة ، أو إشارة ، يؤولها سوء ظنه تأويلا سيئا ، مع أن الواجب عليه أن يحملها أولا على المحمل الحسن ، وأن يقف غضبه ، حتى تبين له الوجهة المثلى . لأن الانتقام إذا تأخر يمكن استدراكه ، ولكنه إذا وقع تعذر تداركه . يحكى أن أحد اليونانيين تأمر على ملك ظالم ، فاستكشف المؤامرة أعوان الملك وأخذوا في تعذيب الرجل ليدل على شركائه ، فشرع يسمى للملك واحدا بعد واحد من خاصة الملك وبطاته ، والملك يغضب ، فيأمر بقتل كل واحد من سمام ، وما زال الرجل يسمى ، والملك يثور به الغضب ، فيأمر بالقتل ، حتى أتى على جميع المخاصين له ، ثم سأله « هل بقي أحد ؟

فقال له الرجل لم يبق إلا أنت وحدك ، لآنى لم أترك لك
شخصا أمينا تعز عليه حياتك ، فكانت سرعة الحكم فى
حدة الغضب ، معينة للرجل على الملك حتى جعله يفنى بيده
جميع من يثق بهم ، وبقى من بعدهم وحيدا بغير معين ،
ولكن انظر إلى ما فعله الاسكندر الأكبر من التروى
والثانى فى الحكم ، فقد كتبت اليه والدته تنصح له بالتوقى
والتحرز من طبيبه ، وأن يمتنع عن الدواء الذى يقدمه له
إذ قد دس فيه السم . فلما جاء الطيب بالدواء تناوله منه
فشربه بيد وناوله كتاب والدته باليد الأخرى ، ولم يفعل
ذلك إلا بعد التروى والتثبت من أن طبيبه الذى وضع
ثقتة فيه ، لا يمكن أن يخونه .

ومثل ذلك أيضا ما يروى عن أحد الملوك الفاتحين
أنهم جاؤا اليه بعد الفتح بصندوق يحتوى أوراقا يتخاطب
بها أعداؤه ، مع رجاله ، فأمر باحراقها ، من غير أن يطالع
عليها ، ولم يجعل نشرها سببا للغضب عليهم والانتقام
منهم .

فيدبغى للانسان ألا يتسرع فى تصديق كل ما ينقل
اليه قبل التثبت منه ، والتغابى فى كثير من الأمور خير

من إعلانه خيانة الناس له :

ليس الغبي بسيد في قومه

لكن سيد قومه المتغابي

وليبعد ، ما استطاع ، بنفسه عن سوء الظن والتوهم ،
فاذا رأى أن صاحبه مثلاً قابله بتحية لا تليق به ، أو أن
وجه صديقه لم يكن باشا عند لقائه ، أو أن جليسه قطع
عليه الحديث ، أو أن خليله لم يدعه إلى وليمة ، أو أنه أعرض
عنه عند مقابلة ، فليبادر إلى التماس العذر له ، لا إلى سرعة
الغضب منه ، لاحتمال أن يكون صاحب التحية مشغولاً
بأمر يهمه ، والمقطب مهموماً بحادث ألم به ، وقاطع
الحديث خشي من فوات المناسبة لغرض له ، وصاحب
الوليمة كان عذره النسيان ، والمعرض عند المقابلة كان
مشتغلاً النظر بأمر آخر ، إلى غير ذلك من الأسباب التي
كثيراً ما كان إهمال التبصر فيها ، والنسرع إلى سوء الظن
سبباً إلى وقوع العداوة والبغضاء بين الأصدقاء ، والخلطاء ،
ومدعاة إلى تعود الغضب والاستمرار عليه ، أضف إلى
ذلك كثيراً من الأمور التفهية الواهية التي يغضب منها
الإنسان من غير حق ولا تمييز ، مثل أن يغضب من بطء

الخادم في حركته، أو من خلال في نظام مائدته، أو فراشه، أو وضع شئ من أشياءه في غير موضعه المعين له .

فالغضب لهذه الأسباب الواهية، ضرب من الجنون منشؤه ضعف النفس وارتخاؤها من طول التمتع والترف، حتى صارت تتأثر باقل مؤثر، كما حكى عن ذلك المتنعّم الذى نظر الى حاطب يجهد نفسه فى تقطيع الخشب، فأثر فيه ذلك المنظر لضعف قواه . فكان الحاطب يقطع وصاحبنا يعرق له، أو كمثل الذى نهك الترف جسمه، الى درجة جعلته يتململ على فراشه من مس الازهار المنشورة تحت ملاءته . وليس الزهر هو الذى آلمه بخشوته وإنما آلمه رخاوة جسمه المسموم بالترف والتمتع . وكمن واحد منهم أخرجته الغضب عن طوره لعطسة عطسها الخادم، أو سعال اعتراه فى حضرته، أو من تقصير فى طرد ذبابة، أو من وقوع مفتاح على الأرض أزعجه صوته، ومنهم من تصدر عنه الأفعال الكثيرة التى يجور فيها على نفسه، ثم على إخوانه، والأقرب فالأقرب من معامليه، حتى ينتهى الى خدمه وأهل بيته لسبب من تلك الأسباب الواهية . فيكون عليهم سوط عذاب، لا يقبلهم

عثرة ، ولا يرحم لهم عبرة ، وإن كانوا أبرياء من الذنوب .
بل يتجرم عليهم ، ويبيح فيهم ، فيبسط يده ولسانه ، وهم
لا يمتنعون عليه ، ولا يتجاسرون على رده ، بل يذعنون .
ويقرون بذنوب لم يقترفوها استكفاً لعاديته ، وتسكيناً
لغضبه ، وهو مع ذلك يستمر على طريقته ، لا يكف يدا
ولا لساناً . وقد شاهدنا منهم من يتجاوز به الغضب على
نوع الانسان الى البهائم التي لا تعقل ، والى الاواني التي
لا تحس ، فربما قام الى الحمار ، أو الى الفرس ، فضربهما
ولكزهما ، وربما كسر الآنية ، أو عض القفل ، إذا تعسر
عليه ، وربما كسر القلم اذا تعلق به شعرة من الدواة ،
اجتهد في ازالتهما فلم تزل .

كان أحد ملوك اليونان يغضب على البحر إذا احتاج
واضطرب وتأخرت سفنه عن النفوذ فيه ، فيقسم
ليطرحن الجبال فيه ، حتى يصير ارضاً ، ويقف على
الشاطئ . يهدد الأمواج ويزجرها ، حتى تنتفخ أوداجه ،
ويحتقن وجهه ، فاذا علمنا أن الترف والتنعم هما من أكبر
الاسباب المولدة للغضب ، كان أول علاج لدفعه تربية
الجسم والنفس بالرياضة والاخشيشان .

ويغضب الانسان على من يكون من شأنه أن تصدر عنه إهانة ، وعلى ما ليس من شأنه أن تصدر عنه إهانة قط لخلوه من الارادة ، مثال ذلك أن يغضب من زرمن أزرار قميصه استعصى عليه فيمزق القميص ، ويغضب من حذائه لضيقه فيرمى به الى الحائط ، أفليس من الجنون أن يغضب الانسان على أشياء لا تدرك ولا تحس ولا يؤثر فيها الانتقام ؟

ولعل قائل يقول : « إن الانسان لا يغضب على هذه الأشياء في نفسها ولكن يغضب على صناعها » فنقول إن غضبه يسبق هذا التمييز فهو يعقل ما يفعله بها ، وليس في فكره أدنى تصور لمن صنعها . ولو فرضنا أن كان غضبه على صانعها فما يدريه لعل هؤلاء الصناع لهم أعمار مقبولة كعجز أحدهم مثلاً عن إتقان صنعه ، وما معنى الغضب عليه ، وهو لم يقصد أن يغضب أحداً البتة . ومع ذلك فلو استحق هؤلاء الصناع غضب الناس عليهم ، فلا يليق بالعاقل أن يغضب على الأشياء المصنوعة كما أنه لا يغضب على الحيوانات التي لا تعقل وهي لا تفعل شيئاً بنية الإهانة ، وإنما تفعل ما تفعله للدفاع عنها .

فاذا كان الغضب لا يجوز على الجماد ، ولا على الحيوان
فهو لا يجوز أيضا على الأطفال والصبيان ، ولا على الذين
انحطت قواهم العقلية ، نصاروا في منزلة الأطفال وان
شابت نواصيهم ، وتقوست ظهورهم ، والقاضي العادل
لا يحكم في هذه الحال بعقاب لفقده التمييز
ومن الأفعال ما يكون خاليا من إرادة الاضرار ،
كالجمادات والحيوانات ، ومنها ما هو خال من إرادة الاضرار ،
كالتقويم والتأديب . ومن هذا القسم القضاة العدول ،
والآباء ، والأمهات ، والمعلمون ، والمؤدبون ، فان ما يصدر
عنهم من العقاب فيه من المنفعة لك . مثل منفعتك بدواء
الطبيب ، وإن كان مرا ، والعمل بالحكمة وإن كانت مكروهة
للوصل الى الشفاء من المرض ، فيجب على العاقل أن
يكون نظره متجها دائما الى المقاصد والنتائج من الأقوال
والأفعال ، ولو أنصفنا لوجدنا أن ما ينالنا من عقوبة
القضاة والآباء ، والأمهات ، والمؤدبين ، هو أدنى بدرجات
من مقدار الذنوب التي ارتكبناها ، غير أن اعتقادنا في
أنفسنا البراءة من كل ذنب ، حتى نكاد نقول بعصمتنا ،
هو الذي يكبر في أعيننا حد العقاب ، ولكن اذا أيقنا أنه

ما من أحد يخلو مما يلام عليه ، في السر والعلانية ، هان عليه الأمر ، فلم يغضب لجزاءه ، أو عقاب نزل به ، وكل غضب من هذا القبيل ، فانه ذنب آخر يضاف الى ما ارتكبه ، اسمه الصلف والكبرياء .

أمن الرجل الذي يقدر أن يقول للقانون ليس لك على سلطان لطهارة ذبلي في السر والعلن ! ان كل انسان في هذا العالم لا بد أنه فعل شرا ما ، أو همّ به ، أو فكر في فعله ، أو تمناه ، أو ساعد غيره عليه ، فاذا تبجح متبجح بأنه لم يفعل شرا في دنياه ، فتكون حقيقة دعواه عدم نجاحه في ايقاع الشر . وعلى هذا إذا أنصف الانسان من نفسه ، وعلم انه مصدر للخطأ والذنوب ، قابل ما يقع عليه من العقوبة بالرضا ، ولم يأنف من توجيه اللوم اليه . ولنرجع الى ما كنا فيه ، فاذا قيل لك إن فلاناً تكلم فيك بسوء ، فلا تعجل في الحكم ، بل ابحث في الأمر ، ابحث الرجل المنصف . فلعلك فعلت معه ما أوجبه للكلام فيك . ثم ارجع الى نفسك تجدها قد فعلت بالناس ما فعله ذلك المتكلم بك ، وقلت فيهم مثل ما قاله فيك أو أكثر منه ، واحمل ما أتاه معك على التشبه بك ، والمساواة

لك. لا على التعدى عليك ، أو تحمله على مناسبات الحديث ،
وارسال النكتة ، ولطالما اندفع المحدث الى سوء القول ،
التماسا للنكتة لاسواها ، فجاءت بأوخم العواقب ، وبما يحكى
في هذا الباب ، أن أحد ملوك اليونان القدماء كان أعور ،
وكان أصله طاهيا ، فأنحرف ذات يوم عن شاعره وجفاه ،
فقال أحد الأصدقاء للشاعر : أنا على يقين أنك لو ذهبت
اليه والتمست منه العفو لعفا عنك . فقال أخاف أن
يأكلنى « السيكلوب » نيتا . (والسيكلوب حيوان خرافى
بعين واحدة) فجمع فى هذه الكلمة بين التعريض
بالعور والطباخة ، وسمع الملك بذلك فأمر بقتله ، وما
جره إلى ما قال الا ارسال النكتة وحده .

ثم احمى ما يقال فيك أيضاً على الجهل بك من قائله ،
ولنفرض أنه قال ما قاله متعمداً ، ألا يجوز أن تكون
مصلحته متوقفة على تلك الكلمة ؟ وأن نجاحه فى حاجته
لا ينال الا بها - ولكن أين نجد هذا الرجل العاقل
المنصف من نفسه ؟ أنجده فى الرجل الشهوانى الذى
يستهوئ امرأة غيره ويخدعها مع اجتهاده فى المحافظة على
زوجته والغيرة عليها ؟ أنجده فى الرجل الخائن الذى يطلب

مع خيافته الوفاء من الناس ؟ أنجده في الرجل البخيل
الذي يعير البخلاء ؟ أنجده في الرجل الحانث في إيمانه
الذي يشتمن من حنث غيره ؟ أنجده في الرجل المطبوع
على المكر والكيد وهو يشكو مكائد الناس ؟ لقد تعودنا
أن ننشر عيوب الناس على أعين الناس ، ونطوى عيوبنا
وراء ظهورنا فترى الوالد يعيب على ولده الانهماك في
الملاذ والشهوات ، مع كونه أقل انهماكا من أبيه ، وترى
الظالم الجائر يغضب على غيره اذا تعدى على أحد ، وترى
قاطع الطريق يغضب على السارق ، ولكنك إذا أمعنت
النظر وجدتهم لا يغضبون الأفعال وإنما يغضبون على
الأشخاص .

وعلى هذا فاذا نظرنا نظرة الانصاف في نفوسنا ،
كنا أكثر سماحا وأعظم غفرانا للغير ، لأننا ارتكبنا من
مثل الأفعال التي نعضب لها الشيء الكثير .

ومن علاج الغضب أن تنصح الغضيان ليقف وقفة
في غضبه ، فاذا وقفها وكان بمن يفكر ويتدبر ، خف
غضبه ثم زال ، ولا تأملن أن تنزعه من يد الغضب دفعة
واحدة ، فذلك مالا سبيل إليه ، وإنما يزول الغضب شيئا

فشيئا حتى يذهب أثره .

ان الامور المسيئة المهيئة لا تخلو من أن تكون منقولة
أو مسموعة ، أو مرئية . أما المنقولة فلا ينبغي التسرع في
تصديقها . فان كثيراً من الناس يكذبون أما بقصد الغش
والخدعة ، وأما أن يكونوا قد اتخذوا بالكذب فنقلوه ،
فترى أحدهم يرمى الآخر بكرامته لك ، تذرعا الى مودتك ،
وطلباً للنزلة عندك ، فهو ينقل اليك السوء ليظهر من
خلاله مكاتك عنده وشفقته عليك ، وترى بعضهم تدفعه
دوافع الحسد والمنافسة ، ليفصم ، بنقل السوء ، عرا المودة
بين بعض المتحابين وبعض ، يفعل ذلك لمجرد التسلية والتمتع
بمشاهدة وقوع الشقاق بين الناس وهو بعيد عن خطر
الوقوع فيه .

والعجب للانسان يكون قاضيا بين المتخاصمين ، فلا
يحكم بينهم ولو في مسألة واهية ، إلا بعد التحقيق
والتدقيق ، وشهادة الشهود ، ومناقضة الخصوم ، حتى تتجلى
له الحقيقة واضحة ، فيحكم حكمه ؛ والى حين اذا سمع كلمة
السوء ، منقولة عن صديقه ، بادر في الحال الى تصديقها
من غير استشهاد عليها ، أو سؤال صديقه ، وما أسرع ما

تأخذه حدة الغضب ، فيتجههم لصاحبه ، وينزوى عنه ،
وتحل العداوة محل الصداقة ، ويحكم عليه بارتكاب السوء ،
والمحكوم عليه لا يدري ما ذنبه ، ولا يعلم من الذى آتاه ،
ولقد يبلغ المرء فى التصديق والحكم كأنه قد شاهد وخبر ،
وحقق وتأكد ، والناقل هنا يكون أسرع الناس الى انكار
مانقله اليك ، اذا دعى الى اثباته ، وربما أوصاك وهو ينقل
اليك إلا تذكر اسمه ، واشترط عليك أنك اذا ذكرت
اسمه أنككر ما قاله ، وأنه لا يخبرك بشئ بعد ذلك ، فهو
يدفعك الى ميدان العداوة من جهة ، ويتحاماها ، من جهة
أخرى ، ومن كانت هذه حاله فى نقل القول متسترا ، فهو
المخبر المنكر فى آن واحد ، فهل ترى بعد هذا شيئاً أفضح
من أن تظلم صاحبك بتصديق خبر مكذوب ، نقله الناقل
اليك فى الخفاء ، فأسرعت الى مقابلة صاحبك على أعين
الناس بالعداء والجفاء ؟

وأما المسموعة أو المرئية ، فيجب علينا فيها أن نكون
على علم بطباع من صدرت عنه ، وعلى بينة من
نيتة ، فان كان المسمى اليك صديقا وجب عليك أن تعذره
لصغر سنه ، فانه فى هذه الحالة لا يدرك ما صدر عنه من

الشر إدرا كما صحيحا . وان كان والدالك فاما أن تجعل ما
له عليك من الحقوق والممن المتواليه مكفرا عن تلك
الاساءة وإما أن تعتبر ما تحسبه إساءة منه ، نعمة جديدة
عليك في تقويم أخلاقك ، تضاف الى نعمة السابقة . وان
كان المسمى امرأة فالنساء غرائر ، وإن كان المسمى مضطرا الى
ذلك لسبب من الأسباب ، فليس من الانصاف أن
تغضب على المضطر ، ويجوز أن تكون أنت الذي اضطرتته
بما ابتدته به من الاساءة وليس في المكالفة من إساءة . فان
كان المسمى ملكا قادرا فاخضع لحكمه إن كان عادلا ،
وامثل لقدرته وسلطانه إن كان جائرا . فان كان المسمى
من غير ذوى الادراك ، حيوانا كان أو غيره ، فشعورك
بالاساءة منه نزول الى درجته ، وسقوط الى منزلته ، فان
كانت الاساءة من مرض مالم ، أو خطب مفاجيء ، فاحتماله
بعزم الرجال يخفف منه ، وإن كانت الاساءة بقضاء الله
وقدره ، فلا عتب على القضاء ولا غضب على القدر .
وما للعاقل الا الرضا باحكام الله في سرائه وضرائه .
فان كان من ظننت صدور الاساءة عنه من أهل
الفضيلة ، فلا تركز الى الظن « إن بعض الظن إثم » وان

كان من أهل النقيصة فلا تعجب ولا تغضب من صدور
الاساءة عنه .

فان كان المسمى مسخراً مستأجراً ، فسوف ينكفيء - بعد
إتمام إساءته - نادماً ، وكفى بالندم عقاباً .

فان قال قائل إن في الغضب ارتياحاً ، وفي مقابلة الشر
بالشر لذة ، أنكرنا عليه ذلك كل الانكار ، وقلنا له إذا
كان في مقابلة الخير بالخير لذة ، وكان وجه المعروف
والجميل جميلاً ، فان مقابلة الشر بالشر ، على النقيض من ذلك ،
والكريم من يخجل من الانهزام في ميدان الخير ، كما يخجل
من الانتصار في ميدان الشر .

أما الانتقام فهو مما يترفع العاقل عنه ، وإن كان يتناول
معنى العدالة ، وهو لا يختلف عن بادرة الغضب إلا بمضى
الزمن في التربص له ، ومهما خف الانتقام ، ولطف ، فانه
لا يفترق عن الاساءة والاضرار إلا بالتماس العذر لفاعله .
لطم أحد الناس حكيماً من الحكماء في طريقه ، فلما رجع
يعتذر إليه عن اللطمة ، قال له الحكيم : « فيم الاعتذار !
ما أذكر أنك لطمتني » فرأى بحكمته أن تناسى الاساءة
والتغافل عنها ، أجمل في النفس من ذكرها ، وأفضل من

الانتقام لها ، وأرقى من العفو عنها ، ولقائل أن يقول : « أما وجد الحكيم حرجا ومضضا في نفسه من وقوع تلك اللطمة عليه » ؟ فنقول كلا ! بل وجد ارتياحا وانسراحا ، لأن النفس العظيمة يزدهيها أن تحتقر الاساءة ومن صدرت عنه ، وأشفى من الانتقام وأعظم منه أن يحس المسيء إليك ، أنه ليس أهلا لأن يستفرك الغضب عليه .

وكم من منتقم لأمر صغير جره الانتقام إلى أمور عظيمة ، وأضرار بليغة . فلترفع ولتكرم ولنفعل ما يفعله ملك الضواري إذ رن في أذنه عواء الأكلب الغضف فلم تطرف نحوها عينه ولم يلتفت إليها بعنقه .

فإن قالت : « ان الانتقام يوجب الاحترام والتوقير » قلنا إنك إذا أردت أن تستعمل الانتقام كالدواء ، فلا حاجة بك الى إضافة الغضب اليه ، ولا ضرورة لأن ترى فيه ارتياحا أو استشفاء ، ولكن حسبك أن تعتبره فعلا نافعا .

ويجب على العاقل أن يحتمل الاساءة من ذوى السلطان بالصبر ، لا بل بالقبول والارتياح ، لأنهم إذا شعروا بسوء قبولها ، وشدة تأثيرها ، زادوها أضعافا .

وأكبر عيوب الذين أسكرهم الدهر بالمناصب
والمراتب ، أنهم يضيفون الى إساءتهم الحقْد على من أساءوا
اليه ، على أنه لا محل للحقد بعد الاساءة ، وقد قيل لرجل
شاخ وهرم في خدمة الملوك : « كيف بلغت هذه السن وهى
شاذة نادرة فى حاشية الملوك » ؟ قال باغتتها بقبول الاساءة .
والشكر عليها ! وقد يوجد الانسان فى أحوال يكون اظهار
التأثر فيها من الاساءة أشد خطراً منها . يحكى عن أحد
الظالمين من قياصرة الرومان أنه امتعض من تكلف أحد
الشبان من أولاد الكبراء لزيه وشكله ، وشارته وزينته .
فامر بسجنه ، فجاء أبوه يلتمس العفو عنه فقال له القيصر
قد قتلته (وأوعز فى الحال بقتله) ثم أراد أن يخفف عن
الوالد من مصيبته ، فدعاه الى شرف الطعام على مائدته فى
مساء ذلك اليوم ، فحضر الرجل ، وليس على وجهه أثر
من الحزن والغضب ، فناوله القيصر بيده كأساً من الخمر ،
فشربها ، وكأناً تناوله دم ابنه ، ثم أمر القيصر بتضميخه
وتعطيره وتويجه بالزهور كما هى العادة فى مجالس أنسهم ،
ووكل به من يراقبه ، فتقبل الوالد كل ذلك بالطلاقة
والبشاشة ، ثم أخذ مجلسه من مائدة القيصر ، مع تسعة

وتسعين من الكبراء والعظام ، وظل في مساء اليوم الذي
قتل فيه ابنه يتفانى معهم في طوهم ولعبهم ، مع ضعفه
وشيخوخته كما بما جاءته البشرية بمولود .

وكأني بك تقول ، ما سبب هذه المذلة والمسكنة ؟
فأقول لك كان للرجل ابن ثان يريد أن يحفظ حياته ، من
هذه اليد المطلقة في الظلم ، وما كان الرجل ليتأخر عن
مصادمة ذلك الجبار ، لو كان ما يخشاه متعلقا بشخصه
وحده ، ولكن المحبة الأبوية تغلبت على كل تأثر وانفعال ،
ولولا كتمانها ما يغلي في صدره من الحزن ، واطهاره ما
تكلفه في حضرة الملك من البشاشة والمجاراة في اللهو
واللعب ، لكان الابن الثاني لحق بالابن الأول . والعقل
يرشدنا الى أن نمتنع عن الغضب على من هو ندنا ، وعلى
من هو فوقنا في القدر ، وعلى من هو دوننا في الدرجة ، فان
الاتصاف في مصارعة الندأمر مشكوك فيه ، ومصارعتك من
هو فوقك جنون ، ومصارعتك من هو دونك سفالة
ودناءة .

ومن وسائل تسكين النفس عند الغضب ، أن تذكر
للمغضوب عليه يداً في المعروف أسداها اليك ، فيكون

ما أتى به من الخير فيما مضى غافرا لما فعله من الشر فيما حضر ،
ولا تنس ما يعقب العفو والحلم ، من حسن السمعة
وجميل الشهرة ، وكم من صديق حميم اشتريته بالعفو والحلم ،
ولا شيء أبدع من استخراج الصداقة من العداوة ، وأبلغ
القول في هذا الباب ما جاء في الكتاب الكريم « ادفع
بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي
حميم » وقوله أيضا « ويدرأون بالحسنة السيئة » .
ومن السفاهة والحق ، أن يتناول غضبك الأبناء
لذنوب الآباء والأجداد ، فتحمل عليهم حملة الظلم ، لحقدك
على أسلافهم ، وقد قال الله تعالى « ولا تزر وازرة وزر
أخرى » .

ومن وسائل تسكين النفس أيضا ، أن تتذكر وقوفك
بين يدي من لا يرحمك ، ولا يعفو عنك . فإن ارضاك ما
تراه من القسوة عليك ، فلك أن تعامل بها من وقف بين
يديك ، وكم من مرة رفضت فيها العفو عن سواك ،
فأنزلك الدهر الى طلب العفو منه ، ورماك الزمن تحت
أقدام من كانوا يلتمسونه منك بالأمس ، وإذا قيل لك إن
فلانا قلب النحاس ذهبيا ، والحصاد رآ ، طال إعجابك به ،

وإعظامك له ، وعدادت ما صنعه من الخوارق . ولكن
من يقلب العداوة صداقة ، والبغض محبة ، والحرب سلماً ،
والمكافحة مصالحة ، أولى بالاعجاب ، وأحق بالاعظام ،
ومن وسائل تسكين النفس ، أن تتصور ما تكون عليه
هيئة الغضبان من تشويه الوجه ، واضطراب الأعضاء في
ظاهر الجسم ، فما بالك بما تكون عليه النفس في باطنه ، ومن
وصايا بعض الحكماء إذا غضبت فأسرع إلى النظر في المرآة .
ومن الجنون أن يغضب الإنسان لدرهم ، فيصاب من
الغضب بمرض لا يكفي ماله كله لمعالجته . وحدة الغضب
يقع شرها على الغضبان ، أكثر مما يقع على المغضوب عليه ،
فيضرب الغضبان نفسه ، ويمزق ثيابه ، وينزع شعره ،
ويعض يديه ، ويلطم وجهه ، وقد رأينا أحد الحكام في
مصر كان يعض من يغضب عليه ، فكان لكبر سنه
يفقد في كل عضة سناً من أسنانه حتى إذا فنيت أسنانه
الطبيعية ووضع مكانها أسناناً صناعية ، لم تتركه عادة
العض عند الغضب ، فكان كلما غضب على إنسان ترك
صف أسنانه فيه ، فيقوم من دستانه مهرولاً ، وراء الرجل
وهو يفر من أمامه ، ويناديه بفيه المشوه « ويلك !

أأسناني! أسناني! حتى يردّها اليه بعض الحجاب ، بعد أن صار ضحكة الحاضرين .

واعلم أن الأهواء النفسية ، تدخل في النفس تدريجيا إلا الغضب ، فإنه يدخلها دفعة واحدة ، فيتغلب على بقية الأهواء . ويتسلط عليها ، ويبقى وحده قائما فيها يتصرف كما يريد ، فهو لذلك أعظمها شرا ، وأكثرها ضررا ، وكم غضب العاشق - والعشيق أكبر أهواء النفس - فقتل معشوقه ، وقد يغضب البخيل - والبخل من أثبت الأهواء في النفس - فبسط يده في ماله ، وبعثر ثروته ، توسلا الى الانتقام ، وتوصلا الى التشفي ، وقد يغضب المتفاني في حب المعالي والمراتب فيهدم في لحظة واحدة ما بناه من المجد في أعوام . وهلم جرا .

وينبغي لعلاج الغضب باستئصاله ، أو وضع حد لاندفاع النفس فيه ، أن يكون مناسبا لحالته . فتارة تقاومه بالكشف والصراحة إذا كانت حالته خفيفة ، تساعد على ذلك . وأحيانا باتخاذ طرق المداراة والاحتيال لدفعه إذا كانت المقاومة والمعارضة مما تزيد في شدته ، وعلى كل حال لا بد أن ننظر أولا الى درجة نموه . وهل يجوز

دقاومته أو التسايم له في أول هجماته وشدة بأسه ، خشية
أن تزيد المقاومة في اندفاعه ، كما يدفع السيل فيقتاع
الحواجز ؟ والمعول في ذلك كانه على معرفة أخلاق
الغضبان . فمن الناس من يهدأ غضبه ، وتزول عنه سورته
بمجرد الخضوع والامتثال لأمره ، ومنهم من يتضاءف
غضبه ويشتد على مقدار التضرع والترجى ، ومنهم من
يسكن غضبه بالارهاب والتخويف ، ومقابلة الانفعال
بمثله ، ومنهم من يسكن غضبه إذا أقر المغضوب عليه بذنبه
وأنه لا يعود إليه ، ومنهم من لا يسكن غضبه إلا
بمرور الزمن . وهذه آخر درجات العلاج وأبطؤها . ولا
يخفى أن سائر الرذائل يمكن وقفها عن سيرها مدة التأجيل
في العلاج إلا الغضب فانه كالعاصفة في انطلاقها ، والصاعقة
في انقضاضها ، فلا يتمهل ولا ينتظر ، بل يولد قاهرا في
أشد قواه . وليس من خاصته أن يأتي النفس الاستيلاء
عليها من طريق الاستدراج كبقية الرذائل ، ولكنه
يسحبها سحبا ، فيقذف بها في هاوية الشر ، ولو كانت
النتيجة وتوقع الضرر كله عليها . والغضبان يصرع نفسه
ويصرع المغضوب عليه ، ويصرع ما يلاقيه في طريقه

بما لا ارتباط له بالحادثة مطلقاً . والرذائل تجر النفس
الى الهلاك ، ولكن الغضب يقذفها ، وانزلها لفترات
ولكن لا فتور للغضب ولا هوادة . وينشأ بعض الرذائل من
انحراف في صحة النفس يدب فيها ، ويدرج ، فلا تشعر
بتقدمها فيه ، والغضب حمى نازلة تصرعها مرة واحدة ،
وبعض النظر عن درجات الاسباب المغضبة في صغرها
وكبرها ، فان الغضب يدفع بصاحبه الى أقصى درجات
التهور من أوهى الاسباب ، كما يبلغها من أعظم الاسباب
ثم هو لا يستثنى كبيراً ولا صغيراً . ولا يسلم منه شخص
بمفرده ، ولا أمة بمجموعها .

وقد وجدنا أماً وشعوباً تسلم من بعض الرذائل .
فلا تكتنفها ، فمنها التي يمنعها فقرها من رذيلة الفضول في
العيش ، ومنها التي تحول طبيعة بداوتها دون البطالة
والكسل ، ومنها التي لا تعرف الغش والخداع لسلامة
أخلاقها الفطرية ، ولكذلك لا تجد أمة سلمت من رذيلة
الغضب وبوائقه ، فهو شديد الأثر عند العرب ، كما هو
شديده عند العجم ، شديد في المدنية ذات القوانين والشرائع .
كما هو شديد في الجاهلية الجهلاء ، وتصارى القول أن

سلطة الرذائل النفسية تتناول الأفراد والجماعات ، فما سمعنا
أن أمة بأسرها شغفت بهوى امرأة ، أو أنها ابتليت كلها
بآفة البخل ، إلى غير ذلك ، ولكننا طالما سمعنا ان الغضب
استولى على أمة بأجمعها فساقها تحت رايته رجالا ونساء
شيوخا وغللانا ، عظاما ، وأدنيا ، فجعلوا ينفرون سراعا إلى ميدان
الغضب ، وتكفيهم الخطبة الواحدة ، والصرخة النافذة ،
للهاج والثوران . ومن العجب في هذا الشأن ، أن المثير
للغضب ، والمشعل لنيران الثورة ، والنازل المتقدم ،
لا يلبث أن يكون مسبوقا بعد أن كان سابقا ، ومقودا بعد
أن كان قائدا ، فتفز الأمة فزة واحدة ، وتلقى بنفسها بين النار
والحديد ، فتحارب جارتها إن لم تحارب نفسها بنفسها ،
وتخرب وطنها بيأسها .

ويجب لدفع الغضب عن النفس أن تبعد بها عما
يجهزها لحلولة . فلا تزاول من مساعي الحياة ، ومطالب
الدنيا ، ما يزعجها ويكثر همها . ولا تقتحم بها مجاهل المطامع ،
وفيا في الآمال والأمانى ، ولا تحملها مالا تطيقه ، فيتكدر
صفوك ويضيق عطئك . فيجد الغضب وقودا لضرامه
في الصدر ، وقدحا لزندة في القلب ، ومن كلمات الحكيم

« ابقرط » : إذا أردت أن تعيش هادئاً ، البال هنيئاً ، العيش ، فلا تزحم نفسك بكثرة المطالب ، وتعدد الأعمال خاصة كانت أو عامة ، ولا تقصد منها إلا ما كان مناسباً لقواك ، حتى لا يثقل عليك حملة .»

ومن كان مقسماً الأوقات بين المطالب المتعددة ، والمقاصد المختلفة ، استحال عليه أن يسلم من مصادمة الموانع والحواجز في طريقه ، من الأشخاص والأشياء ، فيهيج منها غضبه ، ومن دخل سوقاً كثير الزحام وهو يعدو ، فلا يسلم من التعثر بأذياله ، ومصادمة هذا ، ومعارضة ذلك ، والوقوع تارة ، والقيام أخرى ، وكذلك من يتصدى لمباشرة أمور جمة ، وأعمال متنوعة . يقف عليها حياته ، فإنه يكون في كل أوقاته عرضة للأحزان وهى بساط الغضب في النفس ، ولشد ما تجدد في طريق أعمالك من يقابلك بضد ما تأمله ، ومن يقف سداً أمام مطلبك ، ومن يبادر إلى اختطاف الفائدة التي تنتظرها من مسعاك . ومن يدفعه الحسد فيسعى في قلب المنفعة من أعمالك إلى المضرة ، وكثيراً ما يخيب المطلب الذي تثق بالنجاح فيه . والدهر لا يخدم إنساناً إلى درجة أن يتوج أغراضه التي

تعد بالألوف بتاج الفوز والنجاح ، بل تتعدد الخيبة على قدر تعدد المطالب ، قشمةً من نفسه حينئذ ، ويتكدر خاطره ، ويستعد للغضب من أوهى الأسباب ، فيغضب على الانسان ، والحيوان ، والجماد ، بل يغضب على القضاء وعلى نفسه أيضا . فهدوء البال وصفاء النفس متوقف على ان لا تنك قواك ولا تحمل نفسك ما لا تطيق . وانه ليسهل على المرء أن يحمل حملا ينقله من كتف الى كتف كلما أتعبه ثقله ، ولكنه إذا وضع الحمل الثقيل على كاهله فوق مقدار قوته لم يلبث ان ينوء به ويسقط تحته إعياء ، وكذلك شأن الاعمال الانسانية ، منها ما هو هين يقوى الانسان على القيام به ، ومنها ما هو ثقيل شديد يفوق طاقته ، إذا هم لم ينرض به ، وإذا نهض أنهد به . فعليك أن تختبر قوتك قبل الشروع في الأعمال وتقابلها بقوة العوارض والموانع ، ولتكن أعمالك متوسطة لا تفوق طاقتك ، ولا تترك نفسك تحاول ما فوق قدرتها . فان الأسف الذي يعتريها من خيبة المسعى ينقاب غيظا وكداً ، ويجعلها دائماً مستعدة لحركة الغضب ،

واعلم أن عدوى الأمراض في انتقالها إلى الاجسام ،

ليست بأسرع من عدوى الأخلاق في سربانها في النفوس،
فابذل جميع جهدك في اختيار الصاحب، والمعاشر، والمقارن،
فإن الإنسان جبل على التقاليد، والطبع سراق، «وكل قرين
بالمقارن يقتدى». فالخليع يجر صاحبه إلى الخلاعة، والأحمق
يقود عشيره إلى حماقة، والبخيل يسحب رفيقه إلى البخل،
وعدوى في الرذائل مثلها في الفضائل، فعليك بمعاشرة من
كان دمه الأخلاق، سهل الطباع، لين العريكة، فتكتسب
النفس منه من حيث لا تشعر، ولعمرك ما تفعل جودة
الاقليم، واعتدال الجو، ونقاء الهواء في نقاهة الجسم المريض،
ما تفعله مخالطة ذوي الفضائل في شفاء النفس المريضة.
وأكبر فائدة في معاشرة أصحاب الأخلاق الكريمة
والسجايا السمحة، أنك لا تجد عندهم من الأسباب
ما يهيج له غضبك، واجتنب ما أمكنك مخالطة من كان
متكبراً فيحتقرك، ومن كان في طبعه السخرية فيهزأ بك،
ومن كان كثير الجدل فيخاصمك، ومن كان سفياً فيدسبك،
ومن كان سيئ الظن فيشك فيك، فتكون معرضاً بينهم على
الدوام لثوران غضبك، بخلاف الخلطاء من أهل الفضائل
فانهم لا يصدر عنهم ما يحرك الغضب، بل يبادرون إلى

تسكينه إذا ثارت بك ثأثرته .

ويجب على من كان سريع الغضب أن يخفف عن نفسه من الاشتغال بالعلوم المجردة ، والدروس العقلية العويصة ، فلا يذهب فيها إلى درجة تشق على القريحة ، وتكد النفس فتعبها ، وتهد قوتها ، فتضعف وتعطل ، وتصبح قابلة لسرعة التأثر ، ويعين ضعفها على تساط الغضب عليها . وكما أن الجسم إذا جهده بالحمل الثقيل والعمل الشاق ، ولم يجعل له فترة لراحته وتجديد قوته ، حل به الضعف ، واستعد لنزول الأمراض به ، فكذلك النفس إذا لم ترنق بها وتروحها بما ينعشها ويبعث من نشاطها كادت ومادت . فإذا أحسست من نفسك الضجر والسأم من مزاوله العلم والدرس فعليك أن ترزحها بمطالعة رقيق الشعر وأنيق النثر ، ونكت التاريخ ، وماح الأدب . وجل بها جولة في روائع الصنائع ، ومحاسن النفوس ، وقد كان « فيثاغورس » شيخ الفلاسفة إذا أحس من نفسه الضجر والاضطراب في اشتغالها بالعلوم عمد إلى تسكينها وتهديتها بسماع الألحان الموسيقية ، والانغام المطربة .

ثم اجتنبت ما استطعت أن تزج بنفسك في باب التشاحن

والتشاجر، والتنازع والتخاصم، والتشاكى والتقاضى،
فتصبح موزع النفس، دائم الهم، وما رأيت رجلاً أكثر
غماً، وأبلغ نصباً، وأشد غيظاً، وأوسع كمداً، وأسرع غضباً،
من صاحب قضية، يروح ويغدو، جاهداً في قضائها،
ويقضى ليله ونهاره فى بلالها . فليكن من ابغض
البغض لديك الوقوف أمام المحاكم بخصوصياتها ومرافعاتها،
وتيقن أن الفوز فى هذا خيبة، والربح خسران، ثم تعهد
بدنك بمثل ما تتعهد به نفسك كما قدمناه لك، فلا تنهكه
بالتعب، ولا تهمله من حاجاته الضرورية. ولا تتركه
عرضة للجوع والظما وطول السهر فيفسد نظامه، ويختل
ترازونه، وتتغلب عليه المرة الصفراء. و عليك بادمان
النظافة والاعتسال ورياضة الاعضاء، وما يحول دون تزايد
الأخلاط وعسر الافراز، ومن وصايا «فولتير» الفرنسى
لبعض أصحابه « إذا كان لك عند امير رجا تروم قبوله
فاحذر ان تعرضها عليه إلا بعد ان تتحقق من خادمه إن كان
الأمير قضى حاجته فى صباحه، فان عدم توازن الجسم يولد
كدر النفس فتشمل به كل ما يقابلها من الأمور، ويعم
سخطها كل الأشياء، فترى كل حسن رديئاً، وكل جميل

قبيحا . ولقد ترى الرجل تتولاه المرة الصفراء فيكره في يومه ما يستحسنه في غده ، ان زالت عنه . وبالجملة فان النفس السليمة لا تسكن الا الجسم السليم ، وأكثر ما يصدر الغضب عن ضعاف البنية من الصبيان والشيوخ والمرضى والزمنى والعجزة والمقعدين .

ومن أفنبل الطرق في منع تولد الغضب ألا يكون الانسان شديد التطلع كثير السؤال ، اذنا لكل قائل وناقل فلا يندمج في صف أولئك الذين لا يقر لهم قرار . ولا تسكن لهم حركة ، الا إذا وقفوا على ما يقوله الناس فيهم فيجلبون على أنفسهم ما يوقد جذوة الاحقاد في صدورهم والأجمل بالعاقل أن يسمع قول السوء باذنه ويرى الاسائة بعينه ، فيغضى عنها كأنه لم يسمعها ولم يرها ، لا أن يبحث وينقب للوقوف على ما يقال فيه في غيبته مما يسوء سماعه ، « واذا مروا باللغو مروا كراما » ، ومن الذى سلم من السنة الناس ومن أسنة لومهم وتفنيدهم ، وقد قالوا في الأنبياء وافتروا على الحكماء ، « وذو الجهل في الدنيا بذى الفضل موالع » ، على هذا درجت القرون وكرت العصور . فان كنت فاضلا فلا تتأثر بما يتوله

الجاهل فيك لجهله ، فانه لما عجز عن الارتفاع ليساويك
في الفضيلة ، حاول أن يحطك إلى درجته لتساويه في
النقيصة يفتريها عليك ، ويدلي بها إلى الناس ، فان أنت
تأثرت بأقواله ، كنت جديراً بالنزول إلى مرتبته ، لأنك قد
ساعدته على بلوغ ما ربه . واعلم أنك إذا حصلت على
جميل الأحداث ، من رجل واحد من أهل الفضل ، لم تبلى
سوء ذكرك في أفواه ألف رجل من ذوى الجهل ، واعتبر
نفسك الفائز الرابع ، لأن شهادة الفاضل تبقى ، واقتراء
الجهلاء يزول ، وأحسن ما تدفع به إساءة الجهلاء أن
تقابلها بالاحتقار والازدراء ، والتهاون والاستهزاء . وأن
تقاب هناك الجدة زحاً ، واذكر « سقراط » إذ خرج يوماً
للتنزه فاعترضه أحد الجهلاء فضربه على رأسه ، فالتفت
« سقراط » ضاحكاً إلى من حوله وقال لهم : « الآن علمت أن
من الخطأ أن يجهل الانسان متى يجب عليه الخروج من بيته ،
وعلى رأسه خوذة تستر رأسه وتقيه العوارض » ومرور
الزمن من أنجع العلاج في سكون الغضب ، فاذا هو ثار
ثأره ، فلا تطاوعه فيما يمليه عليك في الحال ، بل تربص ،
ولا تأت أمراً من الأمور ، إلا بعد أن يمر عليه وقت فانك

لا تقدر على تبصر الصواب، وتميز الرشد من خلال دخانه
في التهابه، وكم نظر الغضبان فيما أغضبه بعد ساعة واحدة
من انفعاله، فوهنت لديه الأسباب، ووهت العوامل،
وعجب من نفسه، كيف يغضب ويحتد لمثلها، وناهيك بما
يشمله من الأسف والندم إن كان طواع غضبه فدفعه إلى إتيان
مالا تحمد عقباه من الأفعال، والفضل في إرجاء العقاب
إلى ما بعد سكون الغضب، فإن ما يصدر عنك حينئذ إنما
يصدر عن روية نفس عاودها رشدها، وثاب إليها صوابها،
بعد الاضطراب والاختلال، ويكون العقل هو الذي يميل
عليك ما يميله بحكمته وهدايته، لا الغضب بجهالته وضلالته،
فلا خطأ هنا في الحكم ولا ظلم في العقاب، ثم اصرف
همك وعزمك، كله إلى رياضة النفس على مصارعة
الغضب ومغالبتها، عند أول نشأته، فإنك إن تهمله حتى يشب
ويضطرم استعصى عليك علاجه، وعسر عليك صده
ورده، وكن منه في موقف الفارس المتيقظ لحركات قرنه
عند النزال، فلا يتركه يتقدم عليه ولا يمتاز في الحركة دونه.
ومن لم يبادر إلى مكافحة الغضب صرعه. ومن لم يتغلب
على بادرته غلبه، ومن لم يعتمد إلى إطفاء الشرارة الأولى.

منه استعر فيه لهبه ومن سمات الغضب عند حدوثه أن يظهر العبوس ، والتقطيب ، والتجهم ، على وجه الغضبان . فعليه أن يجتهد ما استطاع في محو هذه الآثار عن الظاهر ، ليؤثر بذلك في تخفيف الغضب في الباطن ، وقد راض «سقراط» نفسه على ذلك حتى وصل الى أن يقلب تلك العلامات الى ضدها . فكان من علامة غضبه عند أصحابه أن ينخفض صوته ويقل كلامه .

ولقائل أن يقول ان ما تشرحه هنا من العلاج أمر صعب الارتقاء ، عزيز المنال ، ومن لنا بدرجة «سقراط» في الحكمة والعقل ، واشباهه من الحكماء في العلم والفضل ، حتى نجري على سننهم ، وننسج على منوالهم ؟ قلنا ان الانسان من أى طبقة كان إذا أراد أمرا واعتزمه وراض نفسه عليه ، فهو لاشك بالغه . ومن اجتهد في تمكين القوة الحاكمة من نفسه ، تغاب بها على الأهواء ، وتسلط على الشهوات . وفي قدرة كل إنسان أن يكظم غيظه ، ويدفع غضبه ، وليس ذلك خاصا بالعقلاء والحكماء دون سواهم من بنى البشر ، ونبسط لك هنا حادثة من حوادث التاريخ التي تعد بالألوف ، تشهد في آن واحد بالدرجة التي يصل

إليها الانسان في غضبه من التناهي في الفظاعة والجنون ،
وبدرجة حكمه على نفسه ودفع الغضب عنه ، والمبالغة
في الجمود والسكون : كان أحد ملوك الفرس مدمناً للخمر
وكان على ذلك ، كثير العريضة ، فاجترأ عليه أحد خاصته يوماً
فنصح له بوجوب الاعتدال لما في سكر الملوك ، من العيب
والنقص وانحطاط المنزلة في أعين الرعية . فقال له الملك :
« لا تظن أيها الرجل أن السكر يذهلني عن صوابي ،
ويفقدني رشدي ، وسأريك برهاناً يشهد لك بأنني لا أزال
سديد الرأي . سديد النظر . سديد الساعد ، وان استرسلت
في تناول الخمر ، وأفرطت في السكر » وأمر باستدعاء ابن
الرجل الناصح ، فلما حضر أشار اليه بالوقوف عند
الباب ، وأمره أن يرفع يده اليسرى فوق رأسه ، ثم تناول
قوسه والتفت الى الوالد قائلاً : « أعلم أنني أريد اصابة القلب
برمية » وسدد سهمه فرشق به قلب الغلام ، فسقط قتيلًا ،
ثم شق عن أضلاعه وأخذ الوالد فأراه السهم مرشوقاً في
سواد القلب ، وقال له ساخراً مبكثاً : « رأيت كيف أسدد
الرمي وأنا سكران » ؟ فلم يكتف الوالد باظمار الرضا
والقبول أمام هذا المنظر الفظيع ، في ابنه ، بل ارتقى في

النفاق فقال له : « أشهد أن إله الصيد والقنص لا يزيد عن
الملك براعة في تسديد المرمى ، واصابة الهدف » فانظر كيف
قدر الرجل أن يحكم نفسه ، ويتخذ من قتل ابنه بهذه
البشاعة سبيلا للتماق والتزاف . وإذا صرفنا النظر عما
في موقف هذا الوالد من الدناءة والندالة - فقد كان
الأجدر به أن يعرض نفسه على الملك ليجرب فيه تسديد
السهم بدلا من ابنه ، علمت أن في قدرة الانسان كظم
الغيظ ، واظهار الارتياح بدل الغضب ، والانشراح بدل
الكدر ، في أشد الحالات وأصعب المواقف . لا فرق في
ذلك بين الفاضل وغير الفاضل ، والحكيم وغير الحكيم .
ودونك حادثة أخرى من هذا القبيل ، وهى أن أحد
الجبابرة الطغاة غضب على أحد حاشيته ، فامر بقتل
أولاده وأن يطبخوا لحومهم ، ثم دعا الوالد وأمره أن
يأكل منها ، وقال له : « ما تقول في حسن هذه الضيافة وهل
اعجبتك الوان الطعام » ؟ فأجابه كيف لا تعجبني وكل ما
يوضع على موائد الملوك طيب لذيد ؟
فاذا أمكن الانسان أن يصل إلى هذه الدرجة من
مصارعة الغضب ، والتغلب عليه من طريق السفالة

والجبانة ، أفليس في إمكانه بالأولوية أن يبالغها من طريق العقل والفضل ؟

ونموذ بالله من الغضب مع المقدرة ، وإطلاق اليد بقوة اليأس ، فانه لا يقف عند حد ، بل يتدفق كالسيل الجارف ، وينقض كالشهاب الثاقب ، من شناعة الظلم ، وفضاعة البغى ، كما رأيت في هاتين الحادثتين . ومع ذلك فقد وجدنا في مثل هؤلاء الجبابرة العتاة من ملك نفسه عند الغضب ، ولم يجعل له سلطانا عليه ، مع ماله من حرية التصرف المطلق في النفوس والأرواح . يروى عن أحدهم أنه سمع اثنين من حراسه يذمانه ويهجوانه من وراء خيمته فرفع الستار عنه وقال لهما : « إبعدا قليلا فقد يجوز أن يسمع الملك كلامكما » والأمثلة في هذا الباب كثيرة . فإذا كان مثل هذا الملك يعالج نفسه من الغضب بهذه الكيفية مع قدرته على الشفي والانتقام ، بلا ضرر يخشاه ، ولا أذى يهابه ، فكيف لا ينزع أى إنسان غضبه من صدره ومن ورائه الاضرار البليغة والعواقب المكروهة ؟ ومن دواء النفس لتطهيرها من الغضب ، حسن الاكتفاء في المعيشة ، والرضا بالحالة التى أنت فيها ، فلا

تشغل قلبك هما بما ليس في يدك . ولا تكن كالسواد
الأعظم من الناس لا يلتفتون الى التمتع بما هم فيه من نعمة بل
ينسونها ويذهلون عنها ، بالتطلع الى ما في يد الغير ، فلا هم
يحمدون ما لديهم ، ولا هم يبالغون في ما في أيدي الناس ، فتقلب النعمة
عليهم نقمة ، ، ويقضون حياتهم في هم ونكد . وشقاء وحسد .
واتعب خلق الله من بات حاسداً

لمن بات في نعمائه يتقلب
وقل أن نرى من يرضى بقسمته مهما عظم شأنها ، إذا
نظر الى قسمة أخيه مهما صغر قدرها ، فتجد صاحب
المنصب الذي يحسده عليه الحاسد ، كئيباً حزينا لا هو
راض عن نفسه ، ولا هو راض بمنصبه ، بل لا يفتأ
يشكو سوء الحظ وسواد البخت ، مادام يرى فوقه من هو
أعلى منه منصبا ، ولو كان فردا واحدا ، ولا يلتفت لحظة الى
من دونه من الذين اعتلى عليهم بمنصبه ولو كانوا الوفا .
وتلك شيمة سيئة من شيم الانسان يشقى بها طول حياته ،
إذ لا يحمد أبداً على الكثير الذي يناله بل يغضب للقليل
الذي يحرم منه . فاذا وليته وكيلا ، لم يزل في وظيفته حزينا ،
حسيرا ، حتى يصير مديرا ، فاذا صار مديرا لم يتجاوز

سروره بوظيفته الجديدة . أكثر من مسافة التهنئة بها .
ثم ينقلب الى عادته ، ساخطا شاكيا حتى يصير وزيراً .
لا يزال هكذا يتدرج من تطلع الى تطلع ، وينتقل من أمل
الى أمل ، فيصبح مقسم العيش بين حزينين حزنه من بقائه
في المنصب الذي يسعى في خلعه عنه خلع النعل ، وحزنه
من بقاء من هو فوقه في المنصب واستبطائه في خلعه منه ،
لا يزال هكذا حتى تنقضى حياته ولما تنقض مآربه .

واعلم بعد ذلك أن الشره في جمع المال هو اس البلاء ،
وداعية الشقاء في هذا العالم ، وهو السبب الأكبر في
الكوارث والنوازل التي تنزل بالانسان في حياته . ركل
ما تراه من خصام بين الاقارب ، ونزاع بين الاصدقاء ،
وخداع بين الاخوان ، وشقاق بين الجيران ، وخصام في
المحاكم ، ولو أحصيت ما يقع في هذا العالم من الجنايات
لوجدتها كلها صادرة عن حب المال ، فالولد يقتل أباه ،
والمرأة تسم زوجها . والأخ يؤذي أخاه ، والأم تشنأ
ولدها ، والعشيرة تفتك بالعشيرة ، والقبيلة تنازل القبيلة ،
والأمة تهاجم الأمة ، كلهم فريسة بين شواجر الأسنه
وقواضب السيوف - « كما تما بين المنايا وبينهم أرحام - »

ليشتروا ذاك الذهب الأصفر بذلك الدم الأحمر ،
وإذا تأملت قليلا فيما وقع من الحروب والخطوب بسبب
الطمع في المال علمت أنه لا يكاد يوجد بين أيدي الناس
دينار رتان لم يلوث بقطرة من دم الانسان ، وتعا لهذا
الانسان وبؤسا ، فهو لا يرضى بعيش ، ولا يقنع بمال ، فتراه
يقدم بمهجته على الأسد في عربنه ، وعلى البحر في هياجه ،
وعلى المدفع في قذفه ، طالبا للمال لينال به الجاه ، وطالبا للجاه
لينال به المال ، ولا يزال في هذه الدائرة الفاسدة حتى
يصرعه الموت في شقائه وبلائه ، وهو لاه عنه ، كما يتوهم
في الحياة الخلود . وكان الأصوب أن نقضى هذه الأيام
المعدودة التي نعيشها في الدنيا براحة وسلام متمتعين بما
وهبه الله لنا من الطيبات ، لا أن نطمع ونتطلع إلى ما فيه
غيرنا من فضول العيش ، وكاليات الحياة ، ولو تحققنا من
أمرهم لو جدنا أن مآلهم مما يبهر النظر في الظاهر ،
لا يساوى ما هم فيه من الهم والغم بطلب الازدياد في
الباطن ، ولم ترض أن تتبدل حالك بحالهم ، ولا ما أنت
فيه من الرضا والاكتفاء بما هم فيه من السخط والغضب .
ولقد يتوهم بعض الناس أن من الغضب ما يدل على

الشهامة والأنفة وعظم النفس ، وليس الأمر على ما يتوهمون .
لأن تأثير النفس بإساءة المسيء يحط من قيمتها ، وينزل
بقدرها عن قدر المسيء . والنفس العظيمة التي تعرف
قدرها وتذكر كرامتها ، لا تتأثر من الإساءة ولا تكاد تحسها
فلا تتقام مفقود لديها . لأن ما لا يحس لا ينتقم له .
والنفس العظيمة تشبه الصخرة الصماء لا يؤثر فيها ما ترميها
به من الحصباء ، وكالمجن يرد السهم مكسوراً ، والسيف
مفلولاً . والحوادث وإن هي عظمت ، لا تحرك النفوس
العظيمة ، لأنها فوق الحوادث والخطوب ، فما أبعد ما عن
ملاستها ، وأناها عن تأثيرها . وما يتأثر إلا النفوس
الضعيفة . والضعف في النفس كالجرح في الجسم إذا مسها
أقل شيء تألمت له فهي أخت السامري تقول لكل شيء
« لا مساس » ولطالما تأثرت بالعطش والجوع فأخذتها الحدة ،
وتولاها الغضب ، ومن ذلك ما تراه على وجوه الصائمين
في شهر رمضان من التقطيب والعبوس ، وسرعة الانفعال ،
وربما تصنعوا ذلك فنهروا أصحابهم ، وشتموا أولادهم
وضربوا خدمهم ، ليعتقد الناس أنهم صائمون وهم يعتذرون
لأنفسهم ، والناس يعتذرون لهم بالصيام . فأفسدوا شرف

العبادات بأقبح الرذائل ، وقلبوا أعمال العبد عند الله الى
أحب الوسائل عند الشيطان في القاء العداوة والبغضاء بين
عباد الله ، وهم ينامون نهارهم ، ويسهرون ليلهم ، ويسمرون
فيه باكل لحوم الناس بعد افطارهم بلحوم الحيوان ، ويؤذون
الناس بحمقهم وغضبهم ، ثم يزعمون أنهم أدوا واجبا ،
وقاموا بفرض ، ولا يعلمون أن الصيام مفروض لتسكين
النفوس ، ووقع الشهوات ، وشفاء الارواح ورقة القلوب .
ومما يجري هذا المجرى أن الناس اذا رأوا رجلا من ذوى
اليوتات قد احتدَّ وغضب ، وشم وسب ، اعتذروا له لأنه
من الأشراف . أهل البيت النبوى ، لحدة في طباعهم
فيحطون بذلك من قدر أولاد النبي بنسبتهم الى الحماسة ،
وليس فوق هذا جهل ، لأن الله لم يخلق أحداً أحلم من رسوله
عليه السلام وأولاده بضعة منه ، وقد تحمل من قریش ما لم
يتحمله بشر ، فكم فعلوا به الأفاعيل ، ووضعوا على عنقه
الشریف وهو يصلى جلد الشاة وفرثها ، فلم يغضب بل قابل
ذلك بالدعاء لهم أن يهديهم الله ، وكسروا ربا عيته فلم يغضب
بل صار يأخذ الدم بيده ويرمى به فى الهواء وهو يدعو
لهم خوفا عليهم أن يستأصلهم الله . وكانوا كل يوم يقابلونه

بأهانة جديدة وإساءة بليغة . فكان يقابلهم بالحلم والعفو ،
ويستغفر لهم مع ما هم عليه حتى عاتبه الله بقوله (استغفر لهم
أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم)
وعفاه عن قاتل عمه حمزة رضى الله عنه وقد كان النضر بن الحارث
من أشد المشركين عداوة للنبي ، فأمر عليه السلام بقتله حيث
لم يقبل الاسلام فرثته أخته بقافية خاطبت النبي فيها بقولها :
أحمد ولا أنت ضن . نجية

في قومها ، والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما

منّ الفقى وهو المغيظ المحقق

فقال عليه الصلاة والسلام « لو سمعت قولها قبل قتله
ما قتلته . فكيف ينسب الجهل لبضعته الطاهرة شيم الغضب
والحق وحدة الطبع ؟ اللهم إن هذا لبيتان عظيم
ومن الناس من يغضب في بيته على خدمه إذا رأى إناء
وضع في غير محله ، أو عثر على شيء من الغبار فوق بساطه .
الذى أباح لزائريه أن يطأوه بنعال وطئت الأزقة الممطورة ،
أو ينزعج من مواء هر ، أو هرير كلب ، أو صياح ديك ، أو
من ضوضاء الخدم فيما بينهم فيهرب فيهم بالسب والشتم ويهجم

بالصنع واللكم كأنه يريد أن يكون بيته في سكون كالصحراء
لا أنيس بها . وقد كان الخليفة المأمون يتجاوز لخدمه عن
تقصيرهم وعيبتهم حتى جرأهم بحمله عليهم فقد نادى الخدم
مرة وكرر النداء فدخل عليه أحدهم وهو يقول له « أيا كل
الخادم ولا يشرب ولا يصلي » فلم يغضب عليه ولهذا قيل
في مثل ذلك إذا حسنت أخلاق السيد ساءت أخلاق
خادمه ، مع أن هذا الذي تؤذيه أقل حركة في بيته ، ويؤلمه
أقل انحراف في أوضاع أثاثه ، فانه يسمع في الطريق من
الضوضاء واللغو وفحش القول أشنع ما يكون ، ويرى في
سيره من الأوحال والأوساخ وكل ما يؤلم النظر فلا يتأذى
ولا يغضب ، بل يمر بذلك كله مر الكريم ، ويتحملة تحمل
الحايم ، أفما يكون له بعد ذلك بعض هذا الحلم في بيته فيصلح
ما اعوج فيه باللطف دون العنف ؟ ولكن الانسان
يريد أن يتذوق طعم الحكم المطلق في بيته ، وان كان عبداً
ذليلاً في بيوت حكامه وأمرائه ، وإذا لم يكن للنفس رادع
منها تبادت بصاحبها في ضروب الظلم والغشم . وقد كان
بعض الحكماء إذا اضطجع في فراش نومه أخذ يحاسب نفسه
عما فعله في نهاره ، ثم يقيم من عقله قاضياً عادلاً للحكم

عليها فيما فرط منها في نهارها ، ولا ريب أن شيطان الغضب
يذهب عنه إذا علم أن أعماله ستعرض كل ليلة على قاض
يقضى عليه بالعقاب ، وأى نومة لذينة ليس فيها حلم إذا
أغمض الانسان جفنه بعد أن تحقق في نفسه أنه قضى
نهاره بالصفح والعفو وإسداء المعروف ، واغاثة الملمهوف ؟
وجملة القول في جميع ما قدمناه أن العمر الذي وهبه
لنا الباري سبحانه وتعالى وهو أنفس موهوب ، وأحب
محبوب ، طويل بالتدبير ، قصير بالتبذير ، وكلنا وإن اختلفنا
في جل الامور قد اتفقنا على التبذير والاسراف في هذا
الموهوب النفيس ، ولا إسراف الوارث السفية في مال أبيه
لا يعرف لكثيره قيمة وقت السعة عرفانه إياها وقت
الضيق . كذلك إذا حانت ساعة الأجل عرفنا قيمة ساعات
العمر ، معرفة الوارث السفية قيمة الدينار الأخير من ماله ،
ويود كل واحد منا لو يفترق ساعة يطول بها عمره بكل
ما ملك واقتنى في حياته ، وما حصل عليه من جاه ومال
وما أمض ما يتذكره حينئذ ، كيف أنه أضاع الجانب
الأعظم من ساعات عمره ، وقضى معظم أيامه في غضب
وحقده وكرهه وانتقام ، ونزاع وخلاف وخصام وشقاق .

فكم أضع أوقاتنا نفيسة فيما لا يفيد من الغضب، وغفل
فيها عن التمتع والتلذذ، تلك الاوقات المزدانة بالصحة
والعافية والغنى والشباب، وفي السنة الشريفة « الدنيا
كسوق قام ثم انفض » فأى الرجلين يوصف
بالعقل والحزم؟ رجل دخل هذا السوق فقضى وقته في الاطلاع
على محاسنه وبدائعه ثم أخذ منه ما اشتهى وخرج منه مملوء
الوطاب من أطايه. أم رجل دخله في الخصام والنزاع،
والضراب والصراع، فيخرج منه خالي اليد من المتاع،
مرض الجسم، زق الثياب، ياءجبا خاق الانسان
للذهاب والفناء ولكنه يصف حقه بالخلود والبقاء،
ويقضى عمره في أحكام عقدة العداوة بين زيد وعمرو،
وهو لا يدري أن الموت يقطعها في لحظة قطع « الاسكندر »
عقدة « جورديان ». وإن الانسان يغضب ويحقد ويكيد
ويدبر والقضاء يعد ساعات الأجل فوق رأسه ساعة أثر
أخرى وهو لاه عنه حتى يختطفه الموت قبل من يكيد له
وبعاديه، فلم لا يعيش الانسان اذا خلوا من العداوات
فيكون مستريح البال ساكن النفس محبوبا في حياته،
مأسوفا عليه بعد مماته. وما بالناس يضرب بعضنا بعضا،

وتؤذي بعضنا بعضا ، ونحن مصفدون جميعا في سلسلة أطرافها
في يد القضاء والفناء وهلا يشير العقل أن نقضى
ساعات هذا الأجل القصير في الهناء لا الشقاء ؟

بقي علينا أن نذكر للقارىء ، بعد الذي عرضناه عليه مما
يقال عن رذيلة الغضب اجمالا وتفصيلا ، ان الغرض
الأول هو أن نقيم له البرهان على أن الغضب ليس بالامر
الطبعي في النفوس البشرية ، لأن ما هو طبعي لا بد أن
يبقى على الزمن ، والغضب يمحوه مرور الزمن عليه ، فهو
ليس بطبعي ، وما لم يكن بطبعي ففي قدرة الانسان
التغلب عليه ، وما يمحوه الزمن بمروره يمحوه العقل بنور
برهانه ، والغضب إذا ابتدأ في النفس ولم يتداركه
الانسان بفضل عقله اشتعل اشتعال الحريق ، واندفع اندفاع
السييل ، واخترق النفس اختراق الصاعقة للبادية ، فلا تتوهم
أنك تضع له حده او تقتصر منه على مقدار ، نعم ان
الوصول الى محو الغضب من النفس أمر صعب المنال ،
وانما الغرض الذي نرمي اليه هو أن نعتقد أن الغضب
ليس له حد يقف الواقف عنده ، وإنك تستطيع بطول
الممارسة والتفكير أن تتغلب عليه . والرجاء فيك أيها

أيها الأريء الكريم ، إن أردت تطهير أخلاقك من رذيلة الغضب ، أن تقر أجمعناه لك في هذا الباب بتدبر وإمعان ، وتعاود قراءته المرة بعد الأخرى حتى يكون بعض الشيء منه حاضر أفي ذا كرتك ، فيردك باذن الله عن الاندفاع في سورة الغضب ، إذا رأيت ما لا يرضيك ، وقد جربت ذلك في نفسي ، فكلها همت وهي الأمانة بالسوء ، أن تغضب لشيء مما يغضب له الناس . ذكرتها ما جمعت من البراهين على رذيلة الغضب ، وأنه لا يليق بالذي يسطرها ويشرحها أن يستفزه الغضب ، ثم أشبعها تبيكتا وتأنيا ، فتصرف عنه المرة بعد الأخرى ، كما أنني جربت ذلك في غيري أيضا : فإن لي صاحباً ترضيك طباعه من المروءة والفتوة ، إلا أنه حاد المزاج ، سريع الغضب ، وأكثر ما يعتاده ذلك ، إذا رأى تقصيرا من الخدم في مجلسه ، أو على مائدته ، فيسب وياعن ويحتقن ويضطرم ، فقلت له يوما في ساعة صفاء أتي أكتب في الغضب فهل ترغب في أن أقرأ لك شيئا منه ؟ جئته بالصحيفة التي عددت فيها ما يلتمس للخدم من الاعذار في تقصيرهم فتأمل ذلك قليلا ، ثم استحسنته كثيرا ، وصرت كلما هم بالغضب على خادمه ، أذكره

الصحيحة ممازحا ، فيرتد في الحال عما كان يجرى على لسانه
في حدة غضبه ، حتى انتهى هو نفسه عند ما يحس من
نفسه الغضب أن يقول لي ممازحا ، ناولني الصحيفة ،
فينقأب الغضب ضحكا والعبوس بشرا
ونقول في محتتم الكلام أن غرضنا كله ، هو أن ينتفع
القارئ بتدريب نفسه على حسب ما بيناه في هذه الرسالة
لا أن يمر عليها مروره على باقي الرسائل والمقالات ، فلا
يتذكر ما فيها ، بعد ما يطويها ، بل يعتبرها مثل تذكرة الطبيب
التي دونت فيها صنوف العلاج وتركيبه ليستعمله بعد
تركيبه وإعداده . والله الموفق والمستعان ، على ما فيه شفاء
الأرواح والأبدان .

سَاعَاتُ الْحَيَاةِ

إن العمر طويل بالتدبير ، قصير بالتبذير ، كما
أشرنا إليه في آخر كلامنا عن « الغضب » وإن الانسان
يشتغل في حياته أكثر ما يكون بسفاسف الأمور التي تجره
إلى الغضب ، فيجره الغضب إلى مضايق الأكدار ،
ومنغصات الحياة ، فيضيع من عمره أكثره في الشقاء والبلاء ،
وكان يجب عليه أن يقصره كله على ما ينفعه ، لا أن يقضيه
فيما يضره ويشقيه . وهو يعرف بالطبع أن زخارف الدنيا
وبدائعها ، وذخائرها ، ورغائبها ، لا تساوي في ميزان
عقله دقيقة واحدة من عمره . بل إن جميع ما يحتوي عليه
هذا العالم من شهوسه ، وكواكبه ، أقل قيمة عنده من تلك
الدقائق التي يصرف الآلاف منها في الأسف ، والأسى
والحزن ، والندم ، إذا لم يبلغ ما أراد من سافل مشتبهاته .
ولكنه لا يحس هذه المعرفة ، إلا إذا حم القضاء ، وقرب
الأجل من الانتهاء ، فيتمنى أن لو أنفق ما في الأرض جميعاً
لزيادة تلك الدقيقة في عمره . وكان يجب عليه أن يتذكر

ذلك، والزمن في ملكه، تصرفه، ينتفع به في وجوده المنافع،
لا أن يتذكره عند ضياع الفرصة، حيث لا يجدى التمتي
والترجي، وحيث يرى «لو» و«ليت» حزين يجرانه إلى
الندم والأسف، ويؤكدان له الهلاك والتلف، وينسب
البخل إلى الطبيعة ظلماً لأنها لم تهبه سمرأ طويلاً يليق بشرف
أعماله من بين سائر الحيوان، وشكرنا جميعاً من الطبيعة،
ووصمنا لها بالبخل، لقصر أعمارنا وسرعة نفادها بادراك
الموت لنا عند ما نستعد للحياة، داء قديم استوى فيه العاقل
منا والجاهل، وهذا رئيس الطب «ابقراط» يقول:
«الحياة قصيرة والهن طويل» وجاء من بعده رئيس
الحكماء «ارسطو» يشكو من الطبيعة لتفضيلها بعض
الحيوان على الانسان بطول العمر، كالحوت، والفيل،
والغراب، والبيغاء، فانها تعيش قروناً، والانسان الذي هو
سيدها ومولاهها، وقدره في الدنيا أعظم، ومقامه فيها
أكرم، وسعيه عليها أعلى، وقيمته فيها أغلى، لا يكاد يبلغ
القرن إلا نادراً. والحقيقة ان نصيبنا ومقسومنا من الزمن
ليس بقليل، وإنما إسرافنا فيه جعله موصوفاً عندنا بالقلّة،
والحياة في الواقع طويلة تكفي للقيام بالأعمال العظيمة، لو

استعمل الانسان أوقاته فيما ينبغي على ما ينبغي ، أما إذا
أضاعها في الملاذ والشهوات ، والكسل عن العمل ، أو في
النزاع ، والحصام ، والصراع ، والضراب ، دون النافع من
الأمور فستأتيه الساعة الأخيرة على عجل فإذا الحياة التي
لم يحس سيرها قد أحس مضيها .

وإذا كانت الطبيعة لم تهينا حياة طويلة فالواجب علينا
الآنعمل على تقليبها وتقصيرها . ولا يجوز أن نشكى
من قلة أيام العمر ، بل نلوم أنفسنا على تضييعها عبثاً
والتفريط فيها ، وحياتنا واسعة لمن يحسن التصرف فيها .
كالثروة في يد الحازم المقتصد يستثمرها وينميها ، لا كالثروة
في يد الوارث السفيفه يبذرها ويسفيتها ، ومع ذلك فانك
تجد الناس كأنهم أجمع على السفه والتبذير فيها ، فترى
الواحد منهم يقضيها في جمع المال وأدخاره فينتظم عقود
الآلاف في خزائنه ، وينثر عقود السنين من عمره ،
فيبغته الأجل ، وقد انتظم له ما ينتفع به غيره من ورائه ،
وانتثر منه ما ينتفع به من أيام حياته ، وترى الثاني
يصرف أوقاته في التلهي بالملاذ والشهوات في غفلة مسترسلة ،
فتحل ببدنه الأمراض والأسقام ، ويوقظه الأجل كأنه كان في

حلم أو منام، وتجد الثالث يتطلع الى ما في يد الغير، ويطمع في أشياء كثيرة ليس أمرها بيده، فتذهب حياته ضياعا في الكدر والشقاء، وتجد الرابع يستظل بظلال الكسل والراحة، فيذهب عمره سدى، وتشاهد الخامس يخادع نفسه، ويلقى بها في المهالك لربح يربحه وهو غنى عنه فيموت ذاهلا بين المخاوف والمتاعب، وترى السادس مشغوف الفؤاد بحب المعارك والوقائع فلا ينهى عمره إلا بالوقوع في التهلكة أو إيقاع الغير فيها، وتبصر السابع يتهاك ويتفانى في خدمة من لم يستحق الخدمة، ولا يعترف له بحميلها، ثم تجد القسم الأعظم من الناس يحسدون غيرهم على أرزاقهم وأقسامهم، فيقضون حياتهم في الشكوى من القضاء والقدر. وآخرين ليس لهم مقصد معروف، ولا مسلك مألوف، ولا غرض معين، ولا سبيل بين، فهم يسيرون مع كل ريح، ويندفعون مع كل تيار، وينتقلون من عمل إلى عمل، بدون تمامه ولا اجتناء فائدة منه. وغيرهم تراهم حيارى بأنفسهم يقضون الحياة بين التردد والتذبذب، وفتور الهمم وانحلال العزائم. وقصارى القرب أننا لانحيا الاجزأ يسير آمن أعمارنا، وما

بقي منها لا يسمى حياة وإنما هو وقت يمضي وأيام تمر ،
وقد أحاطت بنا الأهواء والرذائل من كل جانب . فلا تترك
لنا وقتا تتمكن فيه من اتجاه انظارنا نحو الحقائق والارتفاع
بها وإن كان لنا فترة بين عواصف تلك الأهواء والشهوات .
فإنما نقضيها فيما تخلفه لنا من الجمود في النفس ، و الخبل في
الجسم ، كما يقضي راكب السفينة وقته بعد اضطراب البحر
من الأعاصير والزوابع .

ولا تظن أن تضييع العمر والتبذير فيه من شأن العامة
من الناس وحدهم بمشاغلهم المختلفة ، و ضروراتهم
المنوعة ، وحاجاتهم المعددة و جهلهم بالحكمة العالية ، بل
تضييعه والاسراف فيه من الخاصة والأشراف وعلية
القوم أكثر وأعم ، وإذا تأملت في أحوال هؤلاء الذين
يعددهم الناس بينهم أغنياء ، أقوياء ، أعلية ، سعداء ، لو جدت
أعمارهم أعظم تضييعا ، وأبلغ تبذيرا ، لا تساع دائرة أشغالهم ،
وانفراج زاوية أفكارهم وأوهامهم ، ولحسبتهم كأن بهم
مسا من الشيطان وهم مقبلون مدبرون في هيجاء من
التحاسد ، والتباغض ، والمباهاة ، والمباراة ، يهجمون على غيرهم
تارة ، ويدفعون عن أنفسهم أخرى ، فهم أبعد عن السعادة

بعدهم عن الحكمة .

وإذا أنت رجعت إلى نفسك ، وجمعت ما تشتتت من أفكارك ، ونظرت نظرة الحكيم إلى أوقات حياتك ، رأيتهما أما مسلووبة منهوبة منك ، أو ضائعة تحت طيات الغفلة ، أو متروكة باهمالك ، وأسوأها حالا ، وأكبرها معرة ، ما ذهب منها بطريق الإهمال ، وعلى ذلك فكل العمر ينقضى فيما لا ينبغي ، ومن ذاك الذي يعرف قيمة الزمن ، ويقدر الحياة قدرها ، ويعلم أن كل لحظة هي جزء من فئاته ، وأن انفاس المرء خطاه إلى أجله ، والخطأ كل الخطأ ، أن نظن الموت كل أماننا ، وقد مضت أجزاءه من ورائنا لأن ما يذهب بالانقضاء من العمر هو في الحقيقة الموت بذاته ، فإذا أدركنا ذلك وتنبهنا إليه قبضنا على أوقاتنا قبض البخيل على دراهمه . وأنفقنا منها ويدنا ترتعش كما ترتعش يد الشحيح عند الانفاق ، ولئن كان البخل بالمال رذيلة ، فالبخل بالعمر فضيلة . فإذا فعلنا ذلك كانت أوقاتنا حاضرة لدينا بملكنا ، وانحل عنا ارتباطنا بالمستقبل المجهول ، وعشنا في حقيقة ما نملك في الحاضر ، لا في وهم مالا نملك من المستقبل ، وكانت ساعاتنا الحاضرة خيراً من سنتنا الآجلة . واعلم أن

كل ما في هذا العالم مما تظنه ملكا لك ، هو خارج عن قبضتك إلا الزمن ، فإنه الملك الصحيح الذي وضعه الطبيعة في أيدينا وأغرب كل غريب في أعمال الانسان انه يحرص على الأشياء النفيسة التي يقدر على تعويضها اذا فقدها ، ويقوم بشكر من يحتفظ له بها ، ولا يعتنى بالزمن الذي لا يعوضه شئ في الدنيا ، بل ربما شكر من اضاعه معه ، ثم نراه كالأسد يكاد يفترس من تعدى على بعض ما يملكه ، ونراه يرضى عن من تعدى على اوقاته بالسلب ، ولو سلبه سالب ساعة من معدن الحديد لم يرض عن القضاة الا اذا حكموا عليه بالحبس والتنكيل . لكن إذا سلبه سالب ساعة من معدن الزمن ضاعف له العطاء ، وأجزل الاحسان ، وزاد له في الحمد والشكران ، وطلب منه العودة إلى مثل هذا الخسران . ولن تجد انسانا يقدر أن يقول لك انه استعمل جميع اوقاته فيما ينبغي وأنه لم يخسر في حياته وقتا ما ، وأحزم الناس من يدرك أنه يخسر من اوقاته لأن السواد الأعظم منهم يخسرون اوقاتهم . ويدركون انهم يخسرونها . ولا يحسون هذه الخسارة ، الا في وقت الحاجة اليها عند دنو الأجل . وهناك يعرف الانسان قيمة الزمن

الذي طالما طلب من صاحبه ونديمه وقت الصفاء ان يصرفه
معه في اللهو، واللعب، أو يقتله معه ، على ما في تعبيرهم، وهو
في الحقيقة إنما يقتل نفسه .

ولو أنك سألت رجلا بلغ أقصى العمر ان يعرض
عليك حساب أيامه بالتفصيل ، لما أضاعه في النوم ، وما
أضاعه في حاجات بدنه ، وما أضاعه في لبس ثيابه ، وما
أضاعه في القضايا والدعاوى ، وما أضاعه في الانتظار ،
وما أضاعه في النزاع مع الخدم والخصام مع الاقران ،
وما أضاعه في خيالات الحب وأودام العشق ، وما أضاعه
في المرض ، وما أضاعه في الرد والشطرنج وورق القمار ،
وما أضاعه في التفكير والتدبير لدس الدسائس ، وما
أضاعه في الحزن والكدر ، وما أضاعه مع الثقلاء ، وتكلف
المحادثة مع الجلساء - لو جدته لم يعيش شهرا واحدا من ذلك
العمر الطويل لنفسه ، فان الناس قد أجمعوا على نسيان الموت ،
فبنوا أمورهم على الخلود ، فهم ينفقون أوقاتهم بغير حساب .
وليس يخطر على أفكارهم سرعة مرور العمر ، وقرب نفاذه ،
إلا إذا اختطفت المنون على مقربة منهم قريبا من أقاربهم ، أو
صديقا من أصدقائهم ، هنالك يتنبهون لأنفسهم بعض

الذنبه ، ويتذكرون بعض الذكرى ، ويعلمون أن الموت
حق ، ومع ذلك تراهم يتمحلون الأعذار في أسباب
الموت ، ويتسألون عن الداء الذى عقبه الموت ، ليطمئثوا
أن الموت إنما حل بسبب داء عضال خلوهم منه ، كأن
الموت لاسبيل له على ابن آدم الا من هذا الطريق ، ثم
لا تلبث هذه الذكرى فيهم أن تزول بانهما كهم فيسأهم
عليه ، ويذهب في تياره ذهاب الغشاء فى السيل المنحدر ،
ويعودوا الى الاشتغال بأعمال المخلدين . ولهذا تراهم
يعطون غيرهم فى اوقاتهم عطاء من يمتح من بشر
لا تنضب ، مع ان اليوم الذى يجود به الانسان على غيره
من عمره ، او يتمضيـه فى سخيف من الأمر ، قد يكون
آخر غرب من ذلك القايب ، فيجب علينا أن ننفق من اوقاتنا
انفاق من يعلم انه سيموت غداً ، لأنك اذا نظرت الى تراكم
المهالك ، وتقاطر الأخطار علينا ، من فوقنا ومن تحتنا
وعن ايماننا وعن شمائلنا ، والتفت الى كتائب الأمراض
والعلل التى لا تزال تدأب على الهجوم علينا ، لتدمير هذا
البدن الضعيف ، تيقنت اننا جماعة اسرى فى سلسلة امام
السياف ، يأخذ منها واحداً بعد واحد . لكنك اذا نظرت

الى اتساع مطالبنا التي لا ينتهي منها مطلب إلا أعقبه مطلب
والى ما ترمى اليه إرادتنا من الغايات البعيدة ، تخيلات اتنا
قوم كتب لهم الخلود في الدنيا فلا تؤثر فينا المخاوف ، ولا تفعل
فينا النوازل المنتشرة على وجه الأرض ، انتشار الغبار
عليها . ولا يدركنا العطب ، ولا يبلى منا البدن ، بل كأننا
انتقلنا من سكنى الغبرا ، الى سكنى السماء ، وانتفضنا من صور
الاجسام البالية الى مجردات غير فانية . وانما نحن في غفلة
عن أيام العدر وذهول عن قدر الحياة .

ولو ان انساناً علم انه لم يبق له من عمره إلا ثلاثة أيام ،
وكان شجاع القلب كعلي ، لا يبالي او وقع على الموت ام الموت
عليه وقع ، لظفر لك مما يعمله في هذا الظرف اليسير من
الزمن ، أنه يسع كثيراً من الاعمال كمثل الذي يتأهب للسفر
يقضى في قليل من الوقت كثيراً من العمل ، فلو انه استعمل
اوقات عمره على هذا النسق ولم يصرفه بالباطل ، لتبين له
ان العمر متسع طويل .

ومما نضربه لك مثلاً في الحرص على الوقت
واستعماله استعمالاً نافعاً ، ذلك العالم الالماني ، من اهل
القرن الماضي ، إذ رأى أن يستعمل مدة الانتظار التي لا

يخلو منها انسان بين جلوسه على المائدة وحضور الطعام في
عمل نافع فكان يصرفها في التأليف حتى صدر عنه كتاب
من اعظم الكتب قدرا ونفعا سماه « الدقائق الخمس قبل
الطعام » ولو انا حسبنا ما يتجمع من هذه الدقائق
الخمس التي نصر فيها عبثا في مدة عشرين سنة لكان خمسة
وسبعين يوما من خالص الزمن ولبابه ، ولا يكاد الانسان
يحصل على مثل هذه المدة في سنة من سنياه خالصة له من
الشوائب .

فانظر الى هنا العاقل كيف قضى ما يضيعه كل انسان
من مثل هذه المدة فيما ينفعه وينفع الناس . ومن الناس
من يؤجل متعته بالحياة ولذة العيش وراحة البال ، اجل
يقدره وعمر يسميه ، فيقول اذا وصلت الى الخمسين
التفت الى استصفا . اوقاتي لنفسى فانبد المناسبات
ومعاطبها ، والمراتب ومتاعبها ، واعيش في راحة وشفاء ،
ولذة وهناء ، فيتصرف المسكين فيما لا يملك ، ويحكم على
مالا يعلم ، ويقضى على مالا يدري ، والقضاء واقف على رأسه
يحل ما يعقد ، وينقض ما يبرم ، ويبدله التأجيل بالتعجيل
والمرء كالحالم في المنام يقول انى مدرك أمانى

في قابل ما فاتني في الدام والمرء يدينه إلى الحمام
مر الليل إلى السود والأيام إن الفتى يصبح للاستقام
كالغرض المنصوب للسهم أخطأ رام وأصاب رام
ومن الخطأ الفاضح، والخطل الواضح، ألا يختار
الانسان لراحة نفسه إلا الجزء الأخير والاشفاق ما
يستقي من عمره لنزهة أفكاره في فرايس هذا الملكوت،
وذخائر هذه الطبيعة، وبدائع كنوزها، وجمال صنعها،
وتكوينها فهم ويهبها أقصر وقت من عمره، فكأنه يريد أن
يدخل في أبان الخروج منها، ولقد أنطقت متاعب العلاء
ومشاق المناصب، أعظم الملوك والقيصرة، الذين يحكم
لهم بالسعد وطيب العيش في هياكل العظمة والجبروت،
بكلمات، لو علم البائس الفقير بما ورائها من الهموم
والغموم لاستصغر ما استعظم من أمرهم، ولا يقن أنه
هو المتنعم المغبوط دونهم، فمن ذلك أن ملكاً من أكبر
الملوك قدراً، كان يلهج دائماً في كثير من كلامه بقوله:
«متى أعيش لنفسي يوماً واحداً من أيامي» وكانت كل
أمنيته أن يخلو من مشاغله لينال هذه البغية، فلما علم أن
لا سبيل إليها، كتب إلى كبراء دولته يقول لهم «لا أزال

أتطلع إلى التفرغ من الأعمال لأعيش لنفسي
لا لغيري ، ما بقي من عمري ، ولكن علمت أنني
لا أطيق ذلك الآن فسلمت لحكم الضرورة ، وهأنذا باق
في المشاغل والمتاعب ، لا لذة لي في الحياة إلا الأمل في
الوصول إلى غرضي الذي أتطلع إليه يوماً من الأيام .
وآخر مثله كان يقول : « أنا الرجل الوحيد الذي لم ينل
إجازة يخلو بها من مشاغله ، وهو الذي يعطى الاجازات
لغيره .

واعلم أن الحاكم والوزير إذا جالس في دسته ،
واستقل بحصبه ، فقد نسي نفسه أو كأنه مات فلا يبعث
إلا وقت الفراغ من عمله . ومنهم من يصل نسيانه لنفسه
إلى ما بعد ذلك أيضاً ، فقد حدث أن اللورد «يكسفيلد»
وزير انكلترا تقدم ليركب مركبته مع زوجته . فلما دخلت
المركبة بعده وأقفلت بابها أصابها في اصبع من أصابعها ،
فلم تتقزز لذلك الألم الشديد وكتمته وضبطت نفسها
مخافة أن يظهر عليها علامة من علامات التوجع في مسافة
الطريق حتى أوصلت زوجها إلى وزارة الخارجية
وعادت فاستدعت الطبيب ، فلما رجع زوجها وجد

«الطبيب مع أهلها بجانبها وعلم بما جرى ، فأخذ يعتب عليها في تحملها للالم وكتبتها الأمر عنه فقالت خشيت إيقاظك من الاستغراق في الفكر ، واشتغالك بتدبير أمور الدولة ، ونوادير الاستغراق في الفكر والذهول عن الحياة وطول النسيان كثيرة مستفيضة منها ساعة « نيوتن » التي رماها في الماء المغلي بدل البيضة التي كان يريد أن يأكلها فهل كان هذا العالم العظيم عائشا لنفسه ؟ كلا - وإنما أراد أن يموت في الحياة ليعيش بعد الممات .

وشبيه بهذا أحد المبذرين المسرفين في أوقاتهم ، فقد كان يلعب بالنرد فأحس العطش فطلب ماء ليشربه ، فلما جرى به تناول الكوبية بيده فرمى بها في النرد وابتلع الزهر من النرد الذي كان يلعب به في اليد الأخرى . فهل يستطيع هذا اللاعب أن يعد نفسه في الأحياء في ذلك الوقت الذي اختلس النرد منه زمنه النفيس ، وعوضه عنه ما ينتهي إليه اللاعبون من النزاع والصراع ؟

ومما شاهدناه من نوادر الذهول أن المسيو « كاروليدس » أحد كبار العلماء المقيمين في الأستانة ، اشترى يوما من الأيام سمكا صغيرا فلغه في غلاف من

الورق ووضع في جيبه ، وذهل عنه ذهول العلماء ، فكان
كلما دخل على أصحاب له شموا رائحة كريهة ، فقاموا
يبحثون في أركان المكان فلم يروا شيئاً . ولما تكرر ذلك
في بيت آخر تذكر ذلك السمك فاخرجه من جيبه منتناً :
فضحك الحاضرون واشتهرت عنه تلك الحكاية في
الآستانة .

وكان أحد السفراء يمشى في شوارع الآستانة في يوم
مطير ، وعلى رأسه مظلة تقيه المطر ، فذهل عنها وعن
وقايتها له ، ووقف بياب حانوت ليشتري مظلة ، وعند
ما أراد أن يضع يده في جيبه ليدفع ثمنها ، ادرك أن المظلة
الأخرى في يده وعلى رأسه .

ومن ذلك الحكاية المشهورة بين المصريين التي
يروونها عن أحد الأجانب من قضاة المحكمة المختلطة
بالمنصورة ، وهي أنه دعا جماعة من إخوانه لتناول طعام
الغداً عنده في الغد ، وذهل ان يخبر بذلك طاهيه . فلما
حل الميعاد ، وحضروا ، ولم يجدوا عنده ما يأكلونه ، فاعتذر
لهم بذهوله . و اعتزم بعد ذلك دعوتهم مرة ثانية ليعوض
عليهم ما فاتهم . فبدأ بالأمر لطاهيه فطبخ طعاماً كثيراً

بعدتهم ، ثم ذهل عن دعوة أصحابه ، ولما حضر الى البيت ،
وجلس على المائدة ، وجد أصنافا كثيرة ، فسأل الطاهي .
عن سبب ذلك فذكر له ما أمره به ، فبهت الرجل من ذهوله .

ومثل هذا كثير مستفيض بين الناس ، فهل يعده .

العاقل من الانتفاع بأوقات العمر . التمتع بالحياة ؟

وقد أطبق الحكماء على أن معرفة الحياة ، ووجوه ،
الانتفاع بها علم هو أصعب درسا ، وأشق تحصيلا ، وأبعد .
تناولا ، من بقية العلوم ، التي يجوز أن يبرع فيها من لا يزال ،
في سن الصبا ، أما علم الانتفاع بالحياة . فلا يبلغه الا من .
بلغ السن العالية ، ولم يتقنه أحد في هذا العالم سوى بعض .
الأفراد من جهاينة الفلاسفة ، بعد أن نبذوا المال والجاه ، .
ورفضوا المناصب والمراتب ، واجتنبوا الملاذ والملاهي ، .
ليتفرغوا للاشتغال بمعرفة الحياة ، والاستعداد ليوم .
المات ، وهما عندهم الغايتان المقصودتان من الفلسفة .
والحكمة ، فبهما يعرف الانسان كيف يعيش ، ويعرف .
كذلك كيف يموت . ولهم في ذلك مذاهب متعددة ،
وطرق مسلوكة .

والشرط الأول في الانتفاع بالحياة ، هو أن يحفظ .

الانسان أوقاته من الضياع ، فلا يجعل لاختلاسها من يده
سيلا . وصاحب العمر الطويل في الحقيقة هو الذي
لا يجعل أوقاته تحت تصرف غيره ، بل يجعل التصرف
فيها لنفسه ، ويدرك قيمتها ، وما ينتفع به مما ينفع .

وإذا تأملت في أحوال الناس وأطوارهم ، علمت أنهم
لا ينتفعون بأوقاتهم الحاضرة ، ولا يتمتعون بها ، بل يحيلون
التمتع بها دائما على المستقبل ، حتى إنك لترى الفاتح المنتصر
يذدل عن الانتفاع بلذة الانتصار الحاضر ، ويحيل على
المستقبل أمانى له وآمالا . فيحمل التمتع بأعظم ثمرة حاضرة
بين يديه وهى الانتصار ، ولكنه يحيل على المستقبل بلوغ
أمنية أخرى أعظم من انتصاره ، وهى أن يستريح يوما من
الأيام ، ويتمتع بالحياة وقتا من الأوقات .

ونرى بعض أرباب المناصب والمراتب التى يعتبرون
الوصول اليها من أكبر ضروب السعادة فى الحياة ، إذا
وصلوا اليها لم يبارحهم الملل من حاضرهم ، والتطلع الى
المستقبل ، رجاء الوصول الى التمتع بالحياة . وبودهم لو
كانت الأيام كلها جمعا وآحادا ، ومواسم وأعيادا ،
يستريحون فيها من عناء المناصب ، ولكن الذى يقضى

حياته لنفسه ، ويدبر أوقات يومه تدبير الاقتصاد حتى
كأن كل يوم ليس وراءه يوم آخر يرغب فيه ، أو يرهب
منه ، هو الذي يذوق لذة الحياة ، ورغد العيش ، ويكون اليوم
الذي يأتي بعد يومه عمرا جديدا قائما بذاته تم له الانتفاع به .
وبخلاف ذلك فإن ابيضاض الشعر ، وانحناء الظهر ،
وسقوط الأسنان ، وكثرة السنين ، لاتدل على أن صاحبها
عاش كثيرا ، وإنما تفيد أنه أقام على الأرض كثيرا .
وإذا تأمل حديد النظر في هؤلاء الذين يحسد هم
الناس من أرباب المناصب والمعالي ، والرتب العوالي ،
من إذا تنزلوا ونظروا الى الناس ، نظروا اليهم بمؤخر
عيونهم ، وإذا منوا بالتسليم عليهم ، سلبوا بأطراف
أناملهم ، وجددهم كلهم أجرا قد أجروا أنفسهم ، وقدروا
لأعمالهم ثمنا يستوفونه ، ولم يقدروا لأوقاتهم قيمة أو
ثمنا . فتراهم يدا ملأى بالدرهم ، وأخرى فارغة من الزمن ،
فاذا اعتراهم المرض يوما من الأيام ، أدركوا فيه قيمة
الزمن ، وعرفوا مقدار الحياة ، فتنحط تلك الأنوف الشوامخ ،
على يد الطبيب لتقييلها ، عساه أن ينقذهم من مخالبت الموت ،
ويرد عليهم بعض ذلك الزمن الذي لم يكن لديهم من قبل

المرض شيئاً مذكوراً. وانهم ليودون جميعاً لو يفتدون بما في العالم كله ساعة واحدة من الزمن، أضاعوا أمثالها وهم لا يدرون قيمتها، ولا يلتفتون إلى قدرها، فما هذا التضارب وما هذا التناقض؟ ولو انكشف عنهم الحجاب ورأوا ما بقى لهم في جريدة أعمارهم، لفزعوا أيما فزع من قلة الباقي، ولا أدركوا قيمة التدبير والتوفير في أوقاتهم التي أضاعوها سدى وأنفقوها بدداً.

يجوز أن يملك الإنسان الدنيا بخذا فيبرها، ولا يجوز أن يملك ساعة فأت من عمره ليردها، «فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون». وترى الحياة تسيل بالإنسان من منحدر عال إلى هاوية الموت، «ومن يرد سبيل العارض الهطل»؟ وقد ذهل المسكين عن كل هذا، ونسى أن يصاح من أوقاته، وكأنه في سيرته يعمد إلى إصلاح حياته بفقد حياته، فهو يعيش في المستقبل فيفقد به الحاضر، ويهمل ما في يده ليتمتع بما في يد القضاء، وإنك لتجد عامة من تراهم كم ولا وشيوخاً قد خرجوا من الحياة ونصيدهم منها لا يزيد على نصيب الأطفال والصبيان، لا دراك الشيخوخة إياهم دفعة واحدة، بما ذهلوا عنه من

التمتع بأوقاتهم . فحالمهم في ذلك كحال المسافر ، بينما هو يتلمّس
بقي قطع طريقه ، بسماع قصة أو قراءة حكاية ، إذا هو قد
وصل إلى المكان الذي يقصده ، وقد فاتته معرفة ما كان
في طريقه ، والتدرج فيه لاشتغال نظره وفكره .

ومعلوم أن الحياة تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، الماضي ،
والحاضر ، والمستقبل ، فاما الماضي فذخر ممتنع لا تصل إليه
يد الحوادث ، وأما الحاضر فسيال لا يكاد ينحجز ، وأما
المستقبل فمجهول في يد القضاء .

أما الماضي فأكثر الناس لا ينتفعون به لأن انصرافهم
بكليتهم نحو المستقبل ، لم يجعل لهم مهلة للنظر فيما خلفوه
وراهم . ولو فرضنا أنهم وجدوا مهلة ذات مرة لفتهم
عنها خوفهم أن يمر على فكرهم ما فرط منهم فيه مما يجدد
الأسف والندم ، ولا يتذكر الانسان ماضيه إلا بمجرأ
لسوء تصرفه فيه وما ارتكبه من الخطأ والزلل . ولا يجلد
على النظر فيه إلا من كانت أعماله الماضية موزونة
بالقسطاس المستقيم ، صادرة عن سلامة الحكم ، وطهارة
الضمير ، وشرف الأخلاق ، على أن هذا الماضي هو
الكنز الوحيد الذي يملكه الانسان ويدخره من عمره ،

فيجب عليه دوام النظر فيه الانتفاع به ، سواء أكان ممتلكا
بصور الحسنات ، أم مشحونا بصور السيئات ، أما صور
الحسنات فيتذكرها الانسان ليستمتع ويتلذذ مرة بعد
أخرى ، كصورة الأليف يحفظها الأليف عنده فيتمتع برؤيته
بعد زواله . وهذه اللذة وإن كانت خيالية ، إلا أنها تمتاز عن
الحقيقة بأنها تامة كاملة ، تقدر عليها ، وتمكن من تملكها ،
بخلاف حالتها وهي حقيقة في الحاضر ، لما يلابسها من
الآفات ، والعوارض ، والموانع ، التي ربما حالت دون تمامها ،
وكما لها ، وضبطها ، في الملك بهجوم المستقبل عليها . وأقرب
شاهد على ذلك أنك تجد الكبراء من المنعمين المترفين
إذا ارتد أحدهم مرة إلى ماضيه فتذكر أكلة حقيرة أكلها
في زمانه ، على شهوة للطعام ، أزرت لديه لذتها بما يكون أمامه
من صنوف الألوان النفيسة ، فلا يفتأ يتشدد بها في
مجالسه . ولو كان للسكين من أعماله الماضية ما يدخل في
الأعمال الصالحات ، لكان تذكره ملاذها المعنوية ، فوق
ما يلقاه من لذة التذكر لتلك الأكلة المادية التي لم يبق
منها إلا معناها أيضا ، وأما صور السيئات فينتفع
الانسان بالرجوع إليها للعظة بها ، وليكون ما يجده من

الألم عند تذكرها بمثابة عصا المؤدب تمنعه من استئناف أمثالها. وأما الحاضر فهو قصير وجيز، حتى إن بعض الحكماء الباحثين عن حقائق الأشياء، ذهبوا إلى إنكار وجوده بالكلية لأنه سائل تيار، وذهب طيار، لا يتصل، إلا ريثما ينفصل، ولقد بالغوا في ذلك حتى قالوا أنك إذا نطقت بجملة «أنا موجود الآن» فهي غير صحيحة، لأن مسافة النطق بها استوفت آنا من الزمن في مضيه، وهذا الحاضر لا يقف في حركته، كما لا تقف الكواكب في حركاتها الأبدية لدوام انتقالها عن كل حيز، وإن كان يخيل لك في رؤية العين أنها ثابتة مستقرة في مكانها. واعلم أن هذا الحاضر الذي لا تقدر أن تثبت وجوده من سرعة حركته، هو كل ما في ملك الإنسان بعد ذلك الماضي الذي شغلته المشاغل عن الرجوع إلى التعلل به. فإذا أردت أن تعلم مقدار قصر الحياة في اعتبار أولئك المشتغلين بدنياهم، علمته من طول تطلعهم إلى طول الحياة كأنهم لم يعيشوا من دهرهم يوماً واحداً، فترى الشيخ الفاني وهو باسط كفيه إلى السماء يتضرع إلى الله أن يزيد في عمره بضع سنين، فإذا سأله عن عمره أخفى

عنك جزءاً منه . فيريد أن يغشك ، ويغش نفسه ، ويغش
القدر ، ليكون عمره دائماً محلاً لقبول الزيادة ، فنحن
والعمر على طرفي نقيض نسعى للبقاء . وهو يسعى للفناء .
ومما يضحك في هذا الباب ، أن رجلاً من كبار العلماء
في الزمن الماضي ، ولعله « أبو عبيدة » ، مرض مرضاً
شديداً ، نعاذه أحد أصحابه وقال له عند مفارقتة « أسأل الله
لك الشفاء القريب من هذه العلة » فقال له وكيف يرجي
الشفاء من مثلها بعد التسعين ؟ ثم مضت الأيام على ذلك
وعوفي الشيخ من مرضه ، فكان أول عمل له في بدء نقاهته
أن سعى على قدميه حتى وصل الى بيت ذلك العائد ، وقال
له أول كلامه « سألتك بالله أن تكتم علي ما أفضيت اليك
به من مقدار سني .

ومن هذا القبيل ، لنا صاحب كبير السن ، فاذا سألناه
عن سنه تفاءت من السؤال بالحدة والغضب ، وإذا جرى
الحديث معه الى حساب مدة عشتنا له وهي طويلة ،
أحس الحبال المنصوبة له لما يترتب عليها من الاستدلال
على مقدار السن فيفر الى الخوض في حديث غيره .
وإننا لنرى كثيراً من الواقفين على تعريف الزمن في

سرعة حركته كما عرفنا ذلك يكفون أبصارهم عن تلك
السرعة ، ويقفون بأعمارهم في نقطة لا يحركهم منها مر
السنين والأعوام ، فاذا وقف أحدهم على الخمسين مثلا
لم يتزحزح عنها كلما سئل في كل عام . ولا نكثر عليك من
هذه الأمثلة فكلنا نعرف ذلك من أنفسنا .

وترى هذا الحاضر ، الذي يمر مر البرق ، ويجتهد
الانسان في تمديده وتطويله ، ولو في الخيال . هملا مضاعا
في ايدي الناس ، تشغلهم المشاغل فيه عن التمتع به ،
وكأنني بك تظن أنه كلما خلا الانسان من العمل والشغل
في أوقاته ، ازداد تمتعا بطيب العمر ، ومن أقام على البطالة
والفراغ ، تملك أوقاته ، وسان أيامه . كلا - فليس الامر
كما نظرت ، فاننا نعد المقيم على العطل والفراغ أعظم
ذهولا عن حاضره ، وأضيع عمرا من سواه ، وأشغل
أوقاتنا من غيره .

وكما أنك لا تحكم على من يشتغل بخصومة من
الخصومات ، وواقعة من الوقائع ، أنه عاش لنفسه في
ذلك اليوم ، الذي أفناه في ذلك الشغل ، كذلك لا تحكم على
ذلك الفارغ العاطل الذي يقضى يومه بين مضاربة الديوك ،

ومسابقة الخيول ، وتزيين الپاس ، وتحسين الزى ،
والاشتغال بعبث الحديث ، ولغو القول ، إنه عاش لنفسه
لحظة من الزمن فى يومه .

ولست بواجد فرقا بين طبقات الناس فى اشتغالهم
بالوقت الحاضر ، وذوهم عنه ، بين هذا الذى يطوى يومه
فى اشتغال الفكر ، باستخراج الذهب من النحاس ،
أو استخراج أعداد الجمل من الألفاظ ، أو المشتغل
بتصنيف آنية بيته ، أو القائم على بناء قصره ، وبين ذلك
الذى يحاول ما لا ينال من عظام الأمور ، ومصاعب
الأعمال ، ابتغاء صيت يحوزه ، أو مال يقنيه ، فكلنا فى
الذهول عن الوقت الحاضر سواء المشغول منا والفارغ ،
والسارى والسارب ، والقاعد والراكب ، أما المستقبل
تفارج عن يد الانسان ، خاف عنه ، وهو فى خفائه عنا
كمناء النكت السوداء التى استكشفتها «هرشل» فى قرص
الشمس ، وفى بعده عن ملك يدنا كبعدها عنا ، وما تدرى
نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى
«أرض تموت» .

ولكن من سوء حظ الانسان ، ونكد عيشه ، أنه ينسى

الماضي ، ويذهل عن الحاضر ، وينصرف همه كله الى هذا
المستقبل المجهول ، فيعيش في الوهم الباطل حتى تدركه
منيته ، فترى الواحد منا إذا اضطجع فوق فراشه ، فتح
لعينه باب الخلود ، فيلج في ما لا نهاية له من الآمال
والآماني ، وابتناء القصور والعلالي ، في خياله بعد أن قضى
نهاره في هدم بناء العمر . فيقتل لذة العيش الحاضر ، ارتكنا
على حياة المستقبل ، ويحرم نفسه التمتع باللذة القائمة ، انتظارا
للذة غائبة ، فيبيع عاجلا بأجل ، وحقيقة ب وهم ، ولو أن
مستقبل العمر كان مضمونا ، ونعيم العيش فيه محققا ، لكان
من العبث ، وأفن الرأي ، ان يشتغل الانسان بشئ قبل
حدوثه ، ويرمى لأجله بما في يده ، من الشئ الحاضر هباء مشورا ،
فما بالك والمستقبل مجهول موهوم ، والعيش فيه مغيب
مكنون ؟ ولا يزال الانسان هكذا هائما في العيش الباطل ،
حتى يدركه الأجل الحق فيموت ، وهو لم يعيش بعد ، ولقد
ألقت الحكمة على لسان قدماء الرومانيين تعبيرهم في لغتهم
عن الميت ، فيقال عاش فلان ، لامات فلان . ولقد بلغ
من تهالك الناس وتفانيهم في التطلع الى المستقبل والتعلق به ،
أن كادوا يصلون أعناقهم المشرتبة اليه بالعوالي والرماح .

كما وصف المعري حنين الابل الى اوطانها ، عند تطلعها
إلى البرق اللامع من أفقه :

إذا غاب عنها سرها لو رؤوسها
تُمد إليه في رؤوس عوالي

أو كما قال أحد حكماء هذا العصر ، وقد افترط الناس
في التعلق بالمستقبل حتى أشبهوا حمير ايتاليا ، إذ يحتال
سائق الحمار في حثه على السير بشيء من الحشيش الأخضر ،
يربطه في طرف عود ، ويربط الطرف الآخر بين اذني
الحمار ليصير متديلاً امام عينيه ، فلا يزال الحمار دائباً في
الاسراع ليلبغ فاه ، وما هو ببالغه .

ولقد يتجلى لك ذلك بأوضح بيان في أهل السياسة ،
وفي كثير من أرباب مرافق الحياة ، وأخص بالذكر منهم
هؤلاء المشتغلين بأعمال البورصة ، فما أهون أيامهم الحاضرة
لديهم حتى لقد يتمنى احدهم أن يسقط من عمره شهر - سبتمبر
مثلاً - ليأتيه شهر اكتوبر بالربح الذي قدره للاسعار في
خياله ؛ فيجيئه هذا الشهر المتمنى بغير ما حسب وقدر ،
فيقع المسكين في خسارتين ، خسارة عمره ، وخسارة ماله ،
بعد أن اصفر وجهه اصفرار الذهب الذي يطلبه ، واضطرب

قلبه اضطراب أسلاك البرق التي ينتظر أخبارها . وقد روى .
عن « روتشيلد » ملك البورصة كما يلقبونه ، انه لا يكاد يجلس .
على مائدة طعامه ، حتى يقوم ليكلم سمارته المرة بعد
الأخرى ، فهل تحسب هذا الطعام الذي يطعمه متقطعاً طعاماً
يلذه أو يمرى على جسمه ؟ وقس على ذلك أولئك المنهمكين في
القمار والميسر ، فانهم إن ربحوا « وقليل ما هم » شيئاً من
المال ، فقد أضاعوا الكثير من العمر ، بعد أن أفسدوا
أمزجتهم باضطراب النفس . وسهر الليل ، فنتابهم العليل
والأمراض ، ولا يحسون أنهم في الحياة - كان لى صاحب
دخل عليه أهل قرابته في يوم عيد للتبريك ، فوجدوه يلعب
الشطرنج فلم يحل جبوته . ولم يرد لهم سلاماً لاستغراقه في
اللعب ، فخرجوا غضاباً . واشتجرت بينهم العداوة ، ولم
يقبلوا عذره بهذا الاستغراق الذي كان فيه من الموتي .
ومن هذا القبيل أيضاً ، أولئك المرتزقون بالمرتبات
الشهرية ، فانهم يتمنون انقضاء الشهر ، وبودهم لو ينامون
نومة كهفية طول الشهر : ويقومون في آخره .

ومنهم الذين يتفرغون للانتظار ، فانك إذا تكلمت مع
أحدهم ، وهو ينتظر أمراً من الأمور السفوية ، لم يفهم

عنك ما تقول، لموت حواسه بالانتظار، فهو لا كلهم قد
ماتوا في الحاضر، لتخيل الحياة في المستقبل، فاذا جاءهم
المستقبل وصار حاضرًا أهملوه، وتركوه وتعلقوا بمستقبل
آخر، فتذهب حياتهم وما كانت حياة بل موتاً في الحقيقة.
وقد عاش الناس دهرهم بين أقصى المدينة، وادنى
الهمجية، يتطلعون إلى المستقبل، ويتلصقون علم الغيب
ويسلكون لذلك طرقاً جمّة، ويأخذون بأسباب شتى،
فما شئت من الكهانة، والطيرة، والفأل، وضرب الحصا،
وتخطيط الرمل، ومنازل النجوم، وحساب الجمل،
والزيرجة، والجفر، والودع، والورق، والتنويم، والمندل،
حتى بقايا القهوة في الفنجان. دع الأولياء، والمشايخ،
وأصحاب الكرامات، وسدنة الأضرحة والمجازيب
والبلهاء، لا فرق بين الناس في الإيمان والتصديق بذلك.
فتجدهم فيه سواء ذلك الذي يدين بالقرآن، ويتمسك
بالإيمان، فيحاول أن يطلع على الغيب بهذه الوسائل
المختلفة، ويخالف مقالة قرآنه، وحديث نبيه بأن علم
الغيب عند الله قد استأثر به دون الخلق ودون أنبيائه،
وذلك الذي يدين بالشیطان في زندقته والحاده،

ففيك وجود الخالق ويعترف بالميد يوم، ويكفر بعالم
الغيب والشهادة. ويؤمن بعجوز البيت وشيخ السجادة.
وكلمتي اليك في الختام: تمتع بيومك، كأنه جميع عمرك،
مودع المستقبل يأتيك بما فيه والسلام.

[Faint handwritten text, likely bleed-through from the reverse side of the page.]

السُّمْعَةُ وَالشَّرَفُ

قال « شو بنهاور » الحكيم الألماني : « يعلو القدر ،
ويرتفع الذكر ، بين الناس من جهة المنصب ، والرتبة ، والسيرة
، وشرف الفضل . ولكل هذه الصفات في اعتبار الناس
، ونظرهم واعتقادهم وجه صحيح ووجه باطل . فشرف
المنصب هو عبارة عن إقرار الناس واعتقادهم بأن
صاحب المنصب متمكن من الصفات والمزايا التي تؤهله
للقيام بشؤون منصبه وتنبئ ، عن الكفاية والمهارة ،
والإتقان ، المطلوبة منه لتأديته العمل بالضبط والتدقيق ،
وعلى قدر ما تكون دائرة المنصب واسعة ، ونطاق العمل
ممتدا ، يكون إجماع الناس على الأقرار لصاحبه بالامتياز
فيهم بالمزايا ، والصفات التي جعلته أهلا لولايته ذلك المنصب
فيرتفع ذكره ، ويعلو شأنه ، وتخضع النفوس لاحترامه .
واجتماع هذه الصفات ، التي تؤهل للعمل ، في صاحب
المنصب السياسي هي كاجتماع الصفات اللازمة في صاحب

المنصب الحرى ، فيكون جامعا لصفات القوة ، والشجاعة ،
والاقدام ، ويكون مستعداً دائماً لتفدية وطنه بروحه في
واقف الدفاع عنه ، هذا هو الوجه الصحيح فى المنصب ،
فأما إذا ارتقى المنصب ، من لم يكن له بأهل ، ولم يحسن
القيام فيه بواجب عمله ، وكان خالياً من كل مزية فيه ، فقداره
بين الناس ، واحترامه ، يكون للمنصب فى ذاته لا لشرف
عمله فيه . فشرفه إضافي للمنصب لتجرده عن كل صفة
ومزية فى العمل ، فإذا سقط منه سقط بين الناس ذكره ،
وانمحي أثره ، ولم يترك لنفسه ما يذكر الناس به . وهذا
هو الوجه الباطل فى شرف المنصب . وأما شرف الرتبة
وهى الألقاب ، والعلامات ، فليس لها فى ذاتها قيمة بل
قيمتها قيمة اصطلاحية بين الناس ، وشأنها شأن مصطنع
موضوع فى مقابلة المكافأة بالمال ، فهى أشبه شئ بالسفاحج
وهـ الحوالات « بحولها معطيها على الرأى العام لىوفى
صاحبها أنواع الاحترام والتبجيل . وقيمتها تزدون تنقص
على مقدار ثقة الناس بمناجها ، وأبلغ تأثير لها يكون على
عامه الناس الذين لا يدركون مزايا الأشياء إلا بحاسة
السمع والبصر لبساطة عقولهم ، وضعف مداركهم ، ولما

كان أكثرهم لا يدركون إلا ما ظهر لهم، وتجلي لأعينهم،
ثم لا يلبثون أن يدركهم النسيان، كان كساء الرتبة وحلية
الوسام كالأعلان على صدر صاحبها، يذكرهم بوجوب
الاحترام له، ويقول لهم « اعلوا أن هذا الرجل الذي
تروونه ليس من أشباهكم بل علا عليكم بمزية » ولذلك كان
من الواجب على معطيها أن يدقق ويحقق عند الاعطاء،
ويحرص فيه حرص التاجر عند وضع اسمه في ذيل
الكفالة، لأنها شهادة منه يوجب بها على الرأى العام أن
يعترف بفضل صاحبها، وأن يخلى الطريق في التقدم عليه.
وإذا هو الوجه الصحيح في شرف الرتبة والعلامات فإذا
نالها من لا يستحقها، زالت قيمتها وضاع قدرها، ومنها
نال الرجل منهم من الألقاب وتحلى بالعلامات، فإنها
لا تنيله من النفوس إلا احتراماً ظاهراً من ورائه ازدراء
باطن، وكان المعطى كالبائع يضع على زجاجة الخل ورقة
بأنها زجاجة عطر، وهذا هو الوجه الباطل في شرف
الرتبة.

وأما شرف السيرة فهو قيمة قدرنا في أفكار الناس،
وحقيقة هذه القيمة حسن المعاملة للناس، واحترام

حقوقهم ، واجتناب الظلم ، والابتعاد عن ارتكاب الأثم في
سبيل منفعتنا . وهذا الشرف معرض دائماً للزوال ، ويكفي
أن يصدر عن الانسان عمل واحد يعيبه فيمحو ما تقدم
من محاسن سيرته ، كأن يرتكب الانسان جناية يستحق
عليها العقاب ، بشرط أن يكون الحكم عليه قائماً على منهج
العدل . وأما شرف الفضل الذي ينتج عنه حسن الذكر
وجمال الصيت فهو ما يفضل به الانسان آخر في نفسه
وهو وشرف السيرة أخوان . إلا أنهما يفترقان في أن هذا
يزول ويفنى ، وأن ذلك يدوم ويبقى . وفي استطاعة كل
إنسان أن يتناول شرف السيرة ولكن ليس يمكن كل
إنسان أن يحصل على شرف الفضل ، لأن الفضل في الناس
قليل نادر لا يكون إلا مستثنى في أفرادهم ، وهذا الشرف
يتكون لصاحبه من وجهتين ، من وجهة الآثار الأدبية ،
ووجهة الأعمال المادية ، ولكل منهما منافع وفوائد ،
ومصاعب ومشاق ، خاصة بها لا تفارقهما ولا تزايلهما
والفرق الكلي بينهما أن الآثار الأدبية تبقى بنفسها على
أصلها خالدة عن الدهر ، وأن الأعمال المادية لا يبقى منها
إلا ذكراها وحده ، مهما كان العمل عظيماً ، وشأنه رفيعاً ، ثم

تتضاءل، وتضمحل ويمحوها الزمن من الوجود بمروره
عليها، إن لم يقيدتها التاريخ، فيرويهما للأجيال على التحريف
والتحويل، كما نرى ذلك واضحين أهل الفتوحات من
القواد والملوك وبين أهل التأليف والتصنيف من العلماء
والحكماء، ولا بقاء على الدهر مثل بقاء الصحف المكتوبة،
والكتب المسطورة، ثم إنه لا بد للأعمال المادية من
علل وأسباب تتولد عن ظروف الأحوال، وأحكام
الأزمان، لا يتم تكوينها إلا بها، فشرفها وحسن الذكر بها،
ليس هو عنها في ذاتها بل لما كان حولها من الظروف
والحوادث التي تكسبها قيمة وتكسوها رواء، وهي من
جهة أخرى من الأمور العامة التي تتناولها جميع الأفكار،
وتحيط بها جميع الفهوم ولحسن الاتفاق فيها شأن كبير.
وأما الآثار الأدبية فلا حكم للحوادث عليها، ولا تأثير
للظروف فيها. ولا يتعلق أمرها بغير صاحبها وحده، وهي
لا يعتورها نقص. ولا يعترها خلل، بل تبقى ما بقيت على
حالتها الأصلية التي وضعها عليها الواضعون، وإنما الصعوبة
هنا في تقديرها بين الناس حق قدرها، ووضعها في المنزلة
التي تستحقها. وليس يخفى أنه كلما كانت الآثار رفيعة

جلية في الأفكار ، قل عدد من يحيط بها . وية أهل للحكم
عليها . وقد لا يوجد في كل وقت من يكون أهلا لتقديرها ،
وقد يوجد ، ولكنه يميل في حكمه الى الجور ، وينحرف به
الهوى عن الانصاف ، ولكن مع ذلك لا بد أن يصل إليها
حقها فان لم تنله في عصرها الحاضر نالته في الأعصر
اللاحقة ، بين أهل الخلو عن الغرض من ذوى الرأى
والحكم ، وارباب المعرفة والفضل ، وبعبارة أوضح ، إذا هى
لم تحصل على الانصاف من أعضاء المحكمة الابتدائية ،
المعاصرين لها ، حصلت عليه من محكمة الاستئناف التى
يؤلف الزمن أعضائها من نوابغ الأفاضل ، الذين يجرد بهم
واحدا في إثر واحد ، ويمكن لهم الحكم بفضل
تلك الآثار ، بعد مرور الأيام عابها ، وتوالى الدهر ، فخرها
مضمون على كل حال . فأما إذا وصل صاحبها الى حسن
الذكر ، وعلو الصيت ، ونال حقه في حياته ، فلا يكون
ذلك إلا من باب حسن الاتفاق ، ومساعدة الأقدار ،
وتوافق الظروف ، وعلى أى حال فان حسن الذكر كما
يقول عنه أحد القدماء من الحكماء لا يفتر عن ملازمة
الفضل ، ملازمة الظلال للجسام ، وهى مثلها في حركتها

وسيرها فتارة يكون من أمامه ، وتارة يكون من ورائه ، فإذا
سكت عنك أهل عصرك ولم ينصفوك ، ولم يشهدوا لك بما
أوتيته من الفضل ، لما يكون بهم من الحسد والبغض ، أنصفك من
يأتي من بعدهم ، وردوا إليك حقمك بخلوهم من كل هوى وغرض ،
وهذا القول من هذا الحكيم القديم يدانا
أيضا على أن السعي في انكار ما ينفع الناس من الفضل ،
والانتصار لما يضر من الجهل ، داء قديم في نفوس أهل
النقص والعجز من كل زمان ، كما هو الحال في عصرنا
الحاضر . هذا وكلما كان شرف الفضل وحسن الذكر بطيء
الانتشار ، كان رسوخه باقيا على الدوام كالشجرة التي تنمو
قليلا قليلا وتتأثر جذورها ، فتعلو فروعها ، وما يكون منه
سريع الانتشار سهل الحصول فهو كالنباتات التي تزرع
وتقلع في فصول العام . وأما القسم الباطل منه الذي
لا يقوم على غير أساس فهو كالحشائش الضارة بين الزرع
تظهر و تنتشر في لحظة واحدة ، ثم تصبح هشيما تذروه الرياح ،
وعلى قدر ما يكون صاحب الفضل مجهولا في عصره ، غريبا
في قومه ، فإنه يكون معروفا بين سائر الأجيال الآتية ،
مذكورا بين أهلها ، بحسن الذكر ، وجميل الثناء ، وأمامنا تاريخ

الفنون والآداب، يشهد لنا بأن أعظم ما أتى به الفضلاء
والعلماء من نوادر الآثار، لم يصادف من أهل زمانهم قبولاً ..
ولم ينل لديهم استحساناً، بل قابلوه بما شاءوا من الاغفال
والإهمال، حتى جاء بعدهم من اتسعت أفكارهم للاحاطة به ..
واهتموا بعلو أنظارهم وحسن معرفتهم إلى تقدير قيمته ..
فحكموا لهم بالأحسان، وأنزلوهم في أعلى منازل الاجلال
والاعظام، والسبب في ذلك أن الانسان لا يمكنه أن
يحيط من الأشياء إلا بما يناسب قريحته ويحانسها، ويكون
وفق درجتها في المعلومات، فلا يناسب أرباب القرائح
ذات الجمود إلا الأشياء الساقطة، ولا تتسع أذهان العامة
إلا للأمور التفهية، ولا يوافق أهل الغباوة إلا حديث
الخرافة، ولا يطبق الفكر القاصر العاجز، أن يتصور
ما يصدر عن الفكر الواسع الكامل، وإنما تأخذ القرائح
والفهوم، ما تتسع له من المعارف والعلوم، والقول الصحيح
لا يستوى في الفهم السقيم. ويقول الشاعر « جليلير » في
هذا الباب ما معناه: « كم رأينا من صفات حميدة، وآثار مجيدة
لا يحملها الناس فيما بينهم محل الاستحسان، ولا ينظرون إليها
بعين القبول، وكم اجتمعوا على نبذ الحسن، وأخذ القبيح

لا فرق في الزمان والمكان ، فترى ذلك واقعا في كل أمة ،
وفي كل موطن ، وسواء فيه حديث الزمن وقديمه . فهل لهذا
الداء يوما من دواء يشفي الناس منه ويرفع البلاء عنهم ؟
ما أظن أن لهم غير علاج واحد وهو أن ينقلب الأغبياء
في العالم أذكيا ، ويصبح الجهلاء حكما ، ولكن كيف يتيسر
الانقلاب إلا بانقلاب الخلق ، وتغيير الفطرة ، وذلك غير
ممكن الحدوث ، فلم يبق إلا الصبر والاحتمال لا أولئك الذين
لا يحيطون بالأمور إلا من جهة النظر واللمس لا من جهة
الفكر والعقل ، وهم لصغر نفوسهم لا يزانون يرفعون كل
جاهل سافل على كل عالم فاضل « . وزد على ذلك أن انتشار
الذكر بين الناس بفضل الرجل الفاضل يحط من قدر
معاصريه ، ويحط من شأنهم ، فهم يسعون ما استطاعوا في
كتبان فضله ، وانتقاص منزلته حتى ، لا تعلو على منزلتهم ،
ولا تغلب على شهرتهم ، ولا يروق لمن كان حاصلا منهم على
شيء من حسن الذكر أن يشاركه فيه خلافة ويزاحمه فيه نده .
ومن هنا يتضح لك الفرق العظيم بين الحصول على
اعتراف الناس بشرف السيرة ، لأنه لسهولة طريقه ، وكثرة
اشتراك الناس فيه لا يكون محلا للتحاسد والتنافر ، وبين

الحصول على حسن الذكر ، للفضل الذي تمتاز به النفوس على
سواها ، لما في اعتراف الناس بعضهم لبعض بالفضل الذاتي
من الغضاضة والكراهة . وكل انسان منهم قادر على أن
يكون له سيرة حميدة لا يحسده عليها غيره ، ولكن
لا يقدر كل انسان أن يكون له مثل فضل الفاضل ، فهو
لا يصبر على اشتهاار ذكره بأمر لا يستطيع أن يشاركه فيه
ولا يرضى بأن يقر له بالمزية عليه في حال من الأحوال .
وإن كان الحصول على حسن الذكر بين الناس بفضل
النفس الذاتي هو من أصعب الأمور وأبعدها منالاً ، إلا
أن دوام بقائه والمحافظة على وجوده ، من أيسر ما يكون ،
وهذا بخلاف شرف السيرة الذي يحصل عليه كل انسان
بأسهل طريق ، ولكن يصعب بقاءه وطول المحافظة عليه ،
لأنه يزول في الحال عند ارتكاب أى معيبة ، واقتراف أدنى
جرمة كما ذكرنا في سابق القول ، ولكن شرف الفضل
لا يمكن زواله أبداً لأنه قد تم وكمل بمجرد حدوث الأثر
الذي ظهر من فضل صاحبه ، ولو أنه اقتصر على هذا الأثر
ووحده ولم يتبع الأثر بأثر مثله . فاذا رأيت لأحد الناس
ذكر أشائعا ، وصيتاً ذائعا ، قد انمحي أثره من الوجود ، وكان

عمره قصيراً عن عمر صاحبه، فذلك هو الذكر الباطل الذي لم يستحقه صاحبه بفضل في ذاته، وإنما ناله من جهل الناس وسوء تقديرهم لقدره، وقبح اغترارهم به. ولما كان حسن الذكر ليس هو إلا عبارة عن صدى للفضل وظله، وكانت قيمة الاحسان في نفسها خيراً من قيمة الاستحسان بين الناس، فرغبة الفاضل هنا لا تتجه لحسن الذكر الذي يتولد عن الفضل بل لذات الفضل الذي ينشأ عنه حسن الذكر، والحظ كله فيه سواء انتشر صداه، أو انزوى خبره، فالنفس تسعد به لذاته على كل حال، لأن أحسن الأحوال للعاقل أن يكون حسناً في نفسه، والذي يهمله فوق كل شيء حسن صورته في قلبه، لا حسن صورته في أفكار الناس، وجمال الفضل على خلاف جمال الوجه، الذي تكون فائدته والتمتع به لا تنظر الناس وخدمهم دون صاحبه فان فائدته والتمتع به يكون لنظر صاحبه وان لم يشاركه بقية الناس في النظر إلى هذا الجمال فاذا فرضنا أن صاحب الفضل لم ينل بين الناس، ما يستحقه من شرف الذكر ورفع الصيت فانه قد نال أهم شيء لديه وهو الفضل في ذاته.

وأما الذكر الباطل فهو الذي يقوم على غير فضل في
نفس الانسان، وحظ صاحبه منحصر فيه دون الحظ من
الفضل، ولكنه لا يلبث أن تنكره منه نفسه، وتسأمه لقياده
على غير أساس فيه، وربما اعتراه بالرغم عن تبجح نفسه مثل
الدوار في صعوده الى تلك المدارج التي لم يكن أهلاً
لارتقيائها، أو يحدث في نفسه شك بأن ما حصل عليه من
الذكر إنما هو تمويه باطل، وإن نفسه في عينه تماثل النحاس المموه
بالذهب، فهو في خوف دائم، وقلق شديد، أن ينكشف الطلاء،
ويزول التمويه، ويسقط الى الدرجة التي يستحق النزول اليها
وأما حسن الذكر الصحيح الذي يبقى على مدى الأجيال
الآتية، فقل أن يصل رنينه الى أذن صاحبه، ومع ذلك فإن
الناس يعتبرونه سعيداً ذاحظاً عظيماً يحسد عليه، لأن له في
اتساع فكره، وعلو مداركه، واشتغاله بما هو مطابق لطبيعته،
من وجوه الفضيلة، وما يحلو له في نفسه من ممارسة ذلك
العمل، في ذلك كله ما يجعله في نفسه سعيداً، وأساس سعادته
قائم أبدأ على ما احتوته نفسه من سعة الفضل والذكا، الذي
يظهر أثره من مؤلفاته، ويستجلب به استحسان أهل العصور
اللاحقة، فاستحقاق حسن الذكر بالفضل، هو المكافأة التي

يكتفى بها الفاضل وحدها في عمله ، وأما نيل الرجل
الفاضل لحسن الذكر من أهل عصره وزمانه ، فهو شيء
قادر يتعلق بظروف الأحوال ، واختلاف الحوادث ، لأن
جمهور الناس لا يصلون بمداركهم الى تقدير قيمة الفضل
وانما يتبعون في ذلك آراء الغير من أهل الدراية ، وأرباب
المعرفة والحكم ، فهم ينطقون بحسن الذكر له على التقليد
وفي كل مائة شخص تسعة وتسعون ينطوون في ذلك على
رأى شخص واحد . وحسن الذكر بين المعاصرين وانتشار
الصيت فيهم ليس له إلا قيمة ضعيفة عند صاحب الفضل ،
مهما كان عددهم عظيما . وهو لا يرى في انتشار اسمه بينهم
الا صدى أصوات معدودة اقتدوا بها واتبعوا أثرها ، ويكون
حاله في هذا الباب مثل حال المغنى الذى يرى بعينه اشارات
الاستحسان من الحاضرين ، ثم يتحقق بعد ذلك أنهم كانوا كلهم
صم الآذان وانهم لم يشيروا باشارات الاستحسان إلا
متابعة لواحد فيهم صحيح السمع من دونهم .
وفي هذا ما يبين لنا أن أحسن الذكر الذى نراه لكثير من
المعاصرين بيننا قل أن ينقلب إلى ذكر مخلد يبق على الدهر ،
وقد أشار « دالامبير » إلى ذلك فيما وصف به هيكل

الذكر المخلد حيث قال : « إن هذا الهيكل لا يسكنه إلا
الأموات الذين لم يدخلوه في حياتهم وجماعة من الأحياء
لا يلبثون أن يطردوا منه عند موتهم » وعلى كل حال فإن
الرجل الفاضل ، لا يدرك في حياته الوصول إلى حسن
الذكر الصحيح ، الذي يبقى على الأجيال إلا في سن
شيخوخته ، وعند آخر عمره ، وإنك لترى ذلك واضحا في
صور كبار الرجال وتمثيلهم التي حفظتها لنا الأجيال
الماضية حيث تجدهم كلهم شيوخا بيض المفارق وعلى
الأخص تمثيل الفلاسفة والحكام . « بقي علينا أن ننظر
في الطريق التي توصل إلى حسن الذكر الخالد من جهة
العلوم وهو ينقسم إلى قسمين . قسم ينصرف إلى العلوم
الخاصة ، وقسم ينصرف إلى العلوم الشائعة ومقدار
انتشار الصيت يختلف فيهما باختلاف العلوم فيكون
متسعا بسعتها ، ومحدودا بمحددها . فلو نظرنا مثلا في عمل
عالم امتاز بعمله في حل المسائل الجبرية والرياضية ، فإن
ذكره يكون محدودا ومنحصرا في طائفته وأهل فنه ، الذين
يدركون وحدهم دون بقية الطوائف فضل عمله وعددهم
في كل زمان عدد محدود . ودائرة حسن الذكر متصورة عليهم .

أما إذا كان ما يشتغل به الرجل الفاضل من العلوم أمراً
شائعاً يتصل بمدارك الناس كافة مثل الاشتغال بعلم
الأخلاق، والمباحث النفسانية، واختلاق الطبائع والغرائز،
واستنباط الحقائق والأصول فيها، فإن ذكره يكون
منتشراً، وصيته ذائعاً، على قدر اتساعها وقدر ما تفرد به من
المزية في ذلك على غيره من أهل عصره، ثم يدور مع
الزمن دورة الخلود والدوام. والطريق إلى ذلك ليس
بسهل لأن مثل هذه العلوم الشائعة يكثر عدد المتناولين
لها والمشتغلين بها، فالتفرد بينهم بالامتياز عليهم يحتاج إلى
تعب عظيم ولا يتمكن منه إلا صاحب العمل النادر
والفضل الباهر.

وصاحب الفضل الدائم الذي ينتهي بحسن الذكر
لا بد أن يكون محسوداً بين الناس، مبغضاً، والحسد
على الذكاء والفضل أشد أنواع الحسد في ما سواه من بقية
المزايا التي يتفاضل الناس بها في طبقاتهم، مثل المال، والجاه،
والإحساب، والأقدار، لأنه أعلى المزايا درجة، وأعظم
الأقدار قدراً فقد قال «فردريك الأكبر»: «إن مقام

النفوس الممتازة بالفضل في مقام الملوك وفي ارتفاع
«درجتهم» قاله حين امتعض رئيس حجابيه من جلوس
«فولتير» - الكاتب الفرنسي الشهير - على مائدة
الملوك، وأبناء الملوك، في دعوة صنعها له الملك، وأنكر
امتيازته بذلك، على وزراء الدولة وقواد الجيوش، وكبراء
الحاشية، الذين جاسوا على مائدة رئيس القصر، وكل طبقة
من طبقات أدل هذه المزايا لها من حولها عدد عظيم من
الحساد، يتحرقون في أنفسهم غيظاً وتضطرم صدورهم
نيراناً، على كل فرد من أفرادها لا يفترقون أبداً ولا
يسكنون عن السعي والكمد، ليبينوا للمحسود بكل
طريقة كانت إن كان ممن لا يخافونه ولا يتقونه أنهم
ليسوا بدونه درجة. وأنه لا يمتاز عليهم بشيء، ولكن شدة
تكالبيهم وتهالكهم على هذا المسعى تنبئ بنفسها على ضد
هذا الرأي بينهم. وأحسن الطرق التي ينبغي للمحسودين
أن يسلكوها مع جماعة الحاسدين هي أن يتباعدوا عنهم،
ويقطعوا كل اتصال بهم، ويقيموا لهم في وجوههم من
دونهم سداً، يضمن لهم كل انفصال عنهم. فإذا لم يكن عمل
ذلك في الاستطاعة، وجب على المحسودين أن يتحملوا كل

ما يصدر عن أهل الحسد في حقهم من القدرح ، والذم ،
وفنون السعاية والوشاية ، وما شابه ذلك بكل اغضاء
وسكون فتتضرب تلك الموارد في أيديهم ، وتخدم نار الحسد
بطبيعتها في صدورهم .

والحسد بين الناس داء قديم ، لم يخل منه زمان ولا
مكان ، ومن قبيح الاغترار ، وخطل الرأي ، أن يتصور
صاحب الفضل والذكاء ، أن ظهور فضله بين الناس يقابل
منهم بحسن القبول ، وانشرح الصدور ، ولطف التأهيل
والترحيب ، بل لا بد أن يعتقد أنه يثير في قلوب العدد
الأكبر منهم نائرة العداوة والبغضاء ، التي يكون أثرها فيهم
شديداً بمقدار اضطرابهم إلى عدم الافصاح عن أسبابها ،
ووحجز النفس عن البوح بها ، وبذل الجهد في سبيل
كتمانها واخفائها .

ولزيادة البيان والتفصيل لذلك ، يجب أن نتصور
اثنين من الناس يتخاطبان فترى في الحال أنه إذا
أدرك أحدهما في صاحبه علواً في المدارك ، وارتفاعاً
في الذكاء ، اعتقد في نفسه على البسداة من غير تدبر ، ولا

تفكير أن مخاطبه يرى فيه، ويحكم عليه، بتلك الدرجة بذاتها
في انحطاط الفكر، وضعف الذهن، بالنسبة إليه، فينشأ فيه عن
هذه المعارضة والمباينة بينهما رذيلة الحقد والبغض،
ثم تستعر فيه جذوة الكراهة والنفرة، ولذلك قال «براشيان»:
« إذا أراد الانسان أن يعيش في راحة وسكون بين
الناس، فالطريقة الوحيدة لذلك هي أن يظهر فيهم مرتدياً؛
بجلد أضعف الحيوانات فطرة وأبسطها إدراكاً ».
فالظهور بالفضل، والذكاء، بين الناس هو عبارة عن الايمان
إليهم من طرف خفي باللوم والتعنيف على قلة جدارتهم،
وسوء غباوتهم . وصاحب النفس الناقصة لا يملك نفسه أن
تغضب وتسخط، عند مشاهدتها لصاحب النفس الفاضلة،
وهو مدفوع بدافع هذا الحسد . وليس يخفى أن لذة
الاعجاب بالنفس، هي فوق كل لذة عند الانسان، ولا يحق
له أو يسهل عليه أن يرضى عن نفسه إلا عند مضاهاتها
بنفوس الناس ، ولا مزية عند الانسان في أمور الدنيا
كلها، أعظم في عينه من مزية الفضل والذكاء، ولا زهو له
في نفسه إلا من جهتها لامتيازه بها، وفضله على سائر
الحيوان . فمن مكروه الاقدام وسوء الحذر، أن تتظاهر

فيهم باعتلاء درجتك في الفضل والذكاء، خصوصاً إذا كان ذلك على أعين الناس، وبمشهد الجموع، فإن ذلك يبيع فيهم حب الانتقام، ويورث في صدورهم نيران التشفى، فيلجأون في ذلك إلى أسباب السب والثاب، ويخرجون من دائرة التفاوت في الفضل والذكاء، إلى دائرة الإرادة النفسانية التي نحن كلنا فيها سواء. فإذا كان لصاحب الغنى، أو لصاحب الجاه، اعتماد على احترام الناس له، ورجاء عظيم في توقيره بينهم فإن صاحب الفضل والذكاء لا ينبغي له أن يؤمل فيهم مثل هذا الرجاء. وإن أحسن حظ لراحتته، وأجمل حال له، أن يقيم فيهم على قلة الانتباه له، وعدم الالتفات إليهم، وبخلاف ذلك يكون فضله أمامهم على الدوام نوعاً من أنواع التوقع والتبجح. ويكون في أنظارهم مثل من تملك شيئاً من دونهم بطريق الغصب أو الاختلاس، ثم يجترى، على التظاهر به والتفاخر، فبذلك يضم له كل إنسان في نفسه أن يلحق به شيئاً من التحقير، يترصد له كل فرصة، وأقصى ما يمكن صاحب الفضل الوصول إليه بينهم بكثرة اللطف، والتواضع. أن ينتزع منهم شيئاً من الحفو والصفح عن ذنبه في ارتفاع مداركه وعلو فكره.

مثل اتزاع الصدقة من أيديهم . وقد قال السعدي في
في « الكليستان » : « اعلم انه يوجد عند الرجل الجاهل من
العداوة والكرهه للرجل الفاضل ما يربى أضعافا مضاعفة
على كراهة الفاضل للجاهل ، فان الجهل المحض والانحطاط
في الفكر يستوجب الرأفة والشفقة لا الكراهة والعداوة .
وإذا كان من شأن أصحاب الفضل والذكاء ، ألا
يلتفتوا إلى حسد الحساد ولا يكثرثوا بهم ، ولا يشير
فيهم ما يأتونه معهم من آثار العداوة والبغضاء نائرة الحقد
والغيظ ، بل تكون معاملتهم لهم دائماً معاملة الشفقة
والمرحمة . فان أهل الحسد والنقص لا يزدادون إلا
عداوة لهم وكرهه ، ولا يميلون أبداً اليهم ، ولا يأنسون إلا
بمن يكون على مثالهم ، أو أدنى منهم طبقة ، في قلة الفضل ،
وضعف الذهن ، وهم يفضلون في المعاشرة والمصاحبة
والمخالطة ، أهل الغباوة والجهل كالمرأة المتوسطة في الجمال
لا تميل في المعاشرة والمصاحبة إلى من تكون أجمل منها
خلقة ، وألطف منها شكلاً ، بل همتها على الدوام أن تختار
لها في ذلك ، من كانت دميمة الوجه ، مشوهة الخلق ، ليتجلى
للانظار فضل حسنها عليها بالمقارنة والمضاهاة : فكل امتياز

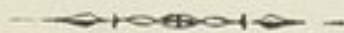
في الرجال بالفضل والذكاء، يدعو أهل النقص والجهل إلى إقصاء صاحبه، وإظهار البغض له، وافتراء المفتريات عليه، وبذل الجهد في نسبة النقائص والمذام إليه، وكل امتياز في النساء بالحسن والجمال يدعو إلى التباعد والتنافر بينهن، ويهيج الحسد والبغض فيهن، فان مزية الحسن والجمال عندهن، كمزية الفضل والذكاء في الرجال. ولهذا السبب ترى أهل الفضل في كل زمان لا ينالون حظهم، ولا يدركون ما يستحقونه من المنزلة بين الناس، ولا تتقدم بهم الحال الى إرتقاء المناصب، وعلو الدرجات التي لا تنال إلا بالتساعد والتعاون، وسعى الناس بعضهم لبعض، ولا يتيسر ذلك إلا لمن يسير على هوى الناس، ويستميلهم إليه بما يرضونه من أنواع التملق وصنوف التزلف. وأصحاب الفضل، كما علمت، قوم لا يصبرون على ذلك، ولا يسلكون سبيله، ولا ينزلون أنفسهم هذه المنزلة، ولا يضعونها في مثل هذا الموضع. فان إحساس النفس لفضلها يحدث فيها من الترفع والاباء ما يبعد بها عن هذه المواطن، ويسمو بها عن حطة هذه الطارق والوسائل، وإنه ليعزّ على صاحب الفضل أن يشهد على نفسه بفضل الجاهل عليه،

ليستميله إلى مساعدته، ويحتذبه إلى معاوئته، بما يروق في عين الجاهل من ارتفاع مقام الجهل على الفضل، ولا بد أيضاً في استرضائه للجاهل من إنكار فضله بنفسه، وإخفاء ذكائه عليه، خشية أن يتولد في نفس الجاهل من ظهور هذه المزية فيه، ما يتولد من النفرة والاشتمزاز منه، وفي ذلك ما لا طاقة للنفس الأبية بحمله، وإنما يقوى على إحتمال هذا الموض وهذا الصغار، من كان ناقص الحظ من الفضل، منخفض الدرجة في الذكاء. هذا هو السبب الأكبر في تقدم أهل الغباوة والجهل، على أهل النباهة والفضل، في كل عصر وجيل، فإنهم لجهلهم وغباوتهم، يخفون على الناس، ولا يثقلون بمزية عليهم، كما أنهم يتحملون كل تفاضل، وتطيب فموسمهم لسلوك طرق انفاق والربا، واستعمال افانين التملق والخضوع، فيستحسنون ما ليس بحسن، ويحترمون ما ليس يحترم، فتميل اليهم القلوب، وترغب فيهم النفوس، وينالون من المساعدة والمعاونة بين الناس، ما يصلون به الى علو المنزلة، وارتفاع الدرجة. وليس ذلك بقاصر على المناصب والمراتب في الحكومات، بل تراه شائعا في جميع المقامات والرتب، التي تتبارى اليها النفوس، وتشرف

بها الاقدار مثل الرآسات الأدبية، والعلمية، وما شاكلها .
وإتتالا نزال نرى مجامع العلوم « أكاديمي » أهلة
بالاعضاء الذين لم يؤهلهم الى الدخول فيها فضل لهم باهر ،
أو ذكاء نادر ، وإنما أوصلهم اليها ضعف شأنهم في الفضل
والذكاء، وقوة استعدادهم في اجتذاب القلوب، واجتلاب
المودات، بمبائل التلطف والتزلف، ووسائل المداهنة والتملق،
وقل - أن يرتفع صاحب الفضل الكامل مثل ارتفاعهم
الى تلك الجمعيات إلا بعد طول العناء، وشدة المناضلة في
أواخر سني العمر، وقرب انتهاء الأجل .

وجملة القول في هذا الباب أن الانسان لا يمكنه
أن يدرك ما هو فوق طاقته، وما هو خارج عن قدرة
تصوره، والحكم على الشيء فرع عن تصوره، بمعنى أن
الرجل لا يستطيع معرفة الفضل في صاحبه، اذا لم يكن له
نصيب ظاهر في الفضل، ولا يقدر له قيمة، إلا على نسبة
اتساع فكره أو ضيقه في هذا الباب. فاذا كانت دائرة
ذكائه ضيقة، ومنزله من الفضل ضعيفة، لم يؤثر فيه ولم
يفعل فيه كل ما يمكن أن يجتمع للرجل الفاضل من صفات
الفضل والكمال، ولم يحس به أدنى احساس ولم يبصر فيه

إلا ما عساه أن يكون به من التهاون والافراط في بعض
الصفات الشخصية التي تكون كالتقصيص والمعاييب، في
أنظار الجهلاء فيقفون عند حدها ولا يدركون فيه ما سواها
من أجل المزايا النفسانية في الفضل والعقل، والنباهة
والذكاء، بل تكون أمام أنظارهم كاللوان أمام العميان، ولا
يبصر نور الفضل إلا من استنار منه فكره، وعظم فيه
نصيبه، ولا يعرف الفضل إلا ذووه.



كدر النفس

لا جدال في أن الكدر والغم من أشد أدواء النفس ،
وأعظم أمراضها ، فهو إذا أنشب أظفاره فيها ، لم يلبث أن
يمزقها تمزيقاً ، ويشتها تشهيتاً ، فترتبك على الانسان معيشته ،
وتضطرب عليه حياته ، حتى يرى الدنيا في عينه أظلم من
الدجى ، وأضيق من سم الخياط ، وتصبح نفسه وكأنهلاً
سمكة الخبر تسود بما تمجه من جوفها كل ما حولها ، أو كأنهلاً
تلبس شارة السواد . كما يلبس الجسم ثوب الحداد .

ولما كان هذا الداء عصى العلاج ، أبى المراسم ،
وجب أن يعتمد الحكيم في علاجه إلى أقوى ما يكون .
لديه من الأدوية المختلفة ، فللمرض الشديد الدواء الشديد ،
وأول شرط في نفع الدواء للبدن أن يواظب المريض على
تناوله ليكمل سريانه فيه . ولا نفع لما تعرضه عليك هذا
من علاج الأكار ، ان لم تأخذ فيه أولاً بطول
المواظبة على التدبير والتفكير ، وشدة الامعان ، وتكرار

النظر، وكثرة التمرن، والتدرب حتى يسرى العلاج في النفس فتغذى به .

إذا كان الانسان يقدر بقوة التمرن والتكرار، أن يصدر عنه من الأفعال العجيبة الجسمانية والنفسانية ما يدهش الألباب، مثل ذلك، الذي كان يحمل ثورا ويعدو به أميالا في أعياد أثينا القديمة، ومثل الذي يلعب في ثمانى رقاع للشطرنج في آن واحد، وهو غائب عنها، مشتغل بلعب آخر من ألعاب الورق في الدنيا الجديدة — فما أولاه بأن يروض فكره، ويمرن نفسه على الأخذ بأحكام الفضيلة، حتى يصل إلى الغاية المقصودة منها، وهى « السعادة » ولكنك إذا قرأت ولم تتدبر، ونظرت ولم تبصر، وحفظت ولم تعتبر، لم تنتفع بكثرة المطالعات، وطول المعالجات .

ولا خفاء في أن البدن مرتبط بالنفس، كما أن النفس مرتبطة بالبدن، وأن مرض النفس يؤثر في البدن فيمرض البدن، ومرض البدن يؤثر في النفس فيمرض النفس . وأول مراقي السعادة النفس « السليمة في الجسم السليم » . ولنبدأ بالكلام عن صحة الجسم التي تتوقف

عليها صحة النفس . فيلزم لصحة البدن ، أن يحتنب
الانسان كل إفراط في الشهوات ، وكل ما من شأنه أن
يورث اضطرابا في الجسم ، ثم يأخذ بشروط الصحة ، من
استنشاق الهواء النقي في الشمس المسفرة ، والاستحمام
بالماء البارد ، وأن يتعهد إفراز الاخلاط الزائدة عن
القانون المطلوب ، وأن يكثر من الحركة ، فان الحياة في
الحركة .

وإنك إن نظرت الى البدن من داخله ، وجدت ما فيه
من الاحشاء والاعضاء في حركة مستديمة ، فترى القلب
يقذف بمجموع ما في الجسم من الدم إلى الأوعية الكبيرة
والصغيرة في ثمان وعشرين ضربة من ضرباته . وتجد
الرئة تعلق وتنخفض بحركة سريعة دونها حركة آلة
البخار ، وتشاهد الأمعاء في إنقباض وانقباض ، وفي
الجسم أعضاء وظيفتها الامتصاص والافراز في آن واحد ،
وعلى الدوام ، وللمخ حركتان عند كل ضربة من ضربات
القلب ، وعند كل إستنشاق للنفس . فاذا قلت حركة البدن
من ظاهره كما هي الحال عند الذين يعيشون عيشة الرفاهية
والسكون ، لم يتم التوازن بينها ، وبين الحركات التي في

باطنه ، فيقع الجسم كله في اختلال ، لأن حركة الباطن تحتاج إلى المعاونة بحركة الظاهر ، وتتطلبها ليستقيم الوزن ، ولا يختل نظام الجسم والنفس معا . وقد ترى الرجل ساكن الجسم وصدرة يتميز بالغيظ ، ويغلي بالحقد ، فإذا دام على هذا السكون لم تأمن عليه مغبة ذلك الاختلال ، ولهذا فأنهم ينصحون للانسان إذا غضب أن يأتي بحركة من بدنه ، وفي الحديث الشريف «إذا غضب أحدكم فليتوضأ» وفي كلام «ارسطو» «فليستحم بالماء البارد» وترى الاشجار لا تسير سيرها الطبيعي في النمو إذا لم تعرضها للهواء لتتهز أغصانها فتساعد الحركة في ظاهرها ، حركة نموها في باطنها .

فتعهد البدن بما يصلحه من الغذاء ، والنظافة والحركة وسواها واجب ، والسير به على قانون الصحة متعين ، لسلامته وسلامة النفس معه . ولا تعجب للأسباب والتوكيد منا في هذا الباب ، فإنه أصل معالجة النفس . وبما يدل على ذلك أنك ترى الشيء في حال انتظام صحتك فترتاح اليه نفسك وتستملحه ، ولكنها إذا رأت في حالة من حالات الجسم المعتلة انقبضت منه ونبت عنه ، والشيء

هو هو واحد لم يتغير، وإنما الذي تغير نظام النفس بتغير
نظام الجسم . ومن هنا قاعدة الحكماء المشهورة ، بأن الأشياء
الخارجية عن الانسان لا قيمة لها في ذاتها ، وإن طريقة
نظرنا إليها ، وكيفية استقبالنا إياها هي التي تلبسها لباس
الحسن أو القبح . وقد أجمع علماء الأخلاق أن تسعة
أعشار السعادة قائمة على اعتدال البدن وصحة الجسم ،
فإن سلطانه على النفس عظيم ، تعتل باعتلاله ، وتعطل
باعتداله . وقد ترى كثيراً من أمراض البدن تؤثر في
الصفات النفسانية أعظم من تأثيرها في البدن نفسه .
فيختل التصور ، ويتبدل الذهن ، وتسوء الطباع . ومن سوء
الرأى ، وخبل العقل ، أن يهمل الانسان أمر بدنه ، ويشغل
عنه بسفاسف الأمور ، وينهك في سبيل المطالب الباطلة ،
ويجعله فدية للسعى وراء المال ، أو الجاه ، أو العلم العقيم ،
أو المجد الزائل واضرب عرض الحائط بقول المتنبي :
« وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام
وتنقسم معالجة النفس من أكارها إلى قسمين :
الأول معرفة حقائق الأشياء في ذاتها ، والثاني معرفة
ما تلبس بالأذهان من الأوهام الباطلة التي تغشى على الحقيقة

وتشوهها ، فتوقعنا في الضلال ، وتورثنا الشقاء والبلاء ، ولما
كان من نتائج شفاء النفس من أحزانها وأكدارها ،
الوصول إلى راحة الحياة ، فقد تعين علينا البحث أولاً
عن ماهية هذه الراحة في معيشتنا ، وعن ماهية الألم ، وعن
حقيقة الخير ، وحقيقة الشر ، وهل هذه الدار دار ألم
وشقاء ، خالية من أسباب السعادة والهناء ، أم فيها راحة
للعيش وسعادة للحياة فنقول :

إن الله جلت قدرته ، لم يرد بخلقه شراً في هذه الدنيا ،
ولم يجعلها مستقراً للألم ، ومستودعاً للعذاب ، تعالى الله
عن ذلك علواً كبيراً ، بل جعلها لأوليائه . وأوليائه هنا
أهل الفضيلة ، دار سعادة وهنا فانية ، يرحلون منها إلى
دار سعادة وهنا باقية ، قال الله تعالى : « ألا إن أولياء الله
لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ولقد اشتبهت علينا الأمور
واختلفت في نظرنا الأشياء ، وأخذنا بتضليل المضامين ،
وبطلان المبطلين ، فصرنا لانفرق بين الخير والشر ،
والطيب والخبيث ، والنافع والضار ، واللذة والألم ، بل
أخذنا هذا مكان ذلك ، وصبغنا الضد بصبغة ضده ، وحوانا
الأشياء عن أصولها ، فوقعنا في شر العذاب .

ومن خالف الحقيقة أعنى فطرة الله التي فطر الناس
عليها، وانسلخ عنها، فاحرى به ألا يلقى في دنياه راحة،
ولا في حياته سعادة، فنحن الذين نجلب الشر لأنفسنا،
ونسود عيشنا، ونخرب بيوتنا بأيدينا، ونشكو الزمان وما
فسد الزمان وإنما نحن الفاسدون. قال الشاعر:
يقولون الزمان به فساد وقد فسدوا وما فسد الزمان
وقال المتنبي:

كلما أذبت الزمان قناة ركب المرء للقناة سنانا
وكما أنه لا يمكن طبيب الأبدان أن يعرف علاج
الأمراض وشفائها إلا بعد معرفة تركيب الجسم والوقوف
على وظيفة كل عضو فيه، كذلك لا بد لحكيم النفوس
من تشريح الفكر، ومعرفة وجوه الخطأ والصواب فيه،
لانتظام صحة التنفس.

فاختلال صحة الفكر مبعثه الخطأ في الحكم على حقائق
الأشياء، والغلط في التقدير، وضعف التمييز بين الصحيح
والفاسد.

فتوازن الفكر، وصحة التمييز وسداد الحكم، ومعرفة
الأشياء من ذاتها، مجردة عما يشوبها من الخطأ والوهم، هو

ما نسميه عقلا ، وهو أحد أركان الفضيلة التي لا تنال
السعادة والراحة في الدنيا بدونها .

وهذه السعادة التي نتكلم عنها ، هي التي كانت الشغل
الشاغل لجماعة الفلاسفة والحكام منذ الدهر الأول .
فذهبوا فيها مذاهب شتى ، واختلفوا في كنهها اختلافا بينا ،
دعا إليه حب الجدل ، وانتصار كل واحد منهم لرأيه ، حتى
بلغ بهم الأمر أن جعلوا لما يسمونه السعادة العظمى ،
مائتين وتسعين وجها كل واحد منها يختلف عن الآخر ،
والرأيان الغالبان بين تلك الآراء المختلفة ، أحدهما أن
سعادة الحياة هي ذات الفضيلة ، وأنه ينبغي للإنسان أن
ينشدها بكل وسيلة سوا أوصل اليها من طريق الألم ، أم من
طريق اللذة ، وثانيهما أن السعادة العظمى في اللذة يبلغها
الإنسان من طريق الفضيلة ، فالفضيلة هنا واسطة وهناك غاية .
ومن تأمل في هذين الرأيين وجب عليه أن يأخذ
بالأقرب منهما إلى الطبيعة البشرية ، والفطرة الإنسانية ،
وهو ثانيهما . لأننا إذا تأملنا في أطوار الإنسان كلها وجدناه
يأنس إلى اللذة منذ نشأته في الوجود . ويميل بطبعه إلى
التمتع بها ويجدها خيرا عظيما .

ثم هو ينفر كل النفور من الألم ويتقيه ، ويسعى
جده في دفعه عنه ، ويراه من أكبر الشرور . هذا في حالة
صحة الحكم الذي فطرته عليه الطبيعة قبل اختلاط الفكر
وفساده ، ولا محل هنا لاقامة البراهين ، فالأمر محسوس
لا نزاع فيه . وما كان محسوساً لم يحتج الى برهان والفرق
ظاهر بين الاحتياج عند بيان الحقيقة الى ترتيب المقدمات
واستخراج النتائج منها ، وبين عدم الاحتياج لغير الشرح
والوصف في بسطها ، والحس هو الحاكم الأول على
الانسان في جميع أحكامه ، فلو نزعناه عنه ، لم يبق لديه شيء
من قوة الحكم ، ولم يدرك التمييز بين ما هو موافق للطبيعة
وبين ما هو مخالف لها .

ولا يوجد أحد في العالم يكره اللذة ، وينفر منها ،
لأنها لذة في ذاتها ، بل لأنها قد ينتج عنها الألم لمن لم يعتدها
ويأخذ بحسب أحكام الفضيلة . كما أنه لا يوجد إنسان
يحب الألم ويطلبه لكونه ألماً في ذاته ، بل لأنه قد ينتج عنه
لذة . ولذلك ترى الانسان يحتمل كثيراً من الآلام ، لأجل
أن يتوصل بها الى نتيجة نافعة ، فالرجل الذي يبحث عن
اللذة التي لا ضرر في عاقبتها . لا يكون ملوماً في حكم العقل .

مخلاف من يبحث عن الألم الذي لا يكون من ورائه لذة .
نعم إننا نلوم كل من غرته جاذبية اللذة الوقتية ، فعمى عما
يلحقها من الآلام والأكدار ، التي تلحق بالنفس في
استسلامها لقيادة الشهوات ، كما أننا نلوم أولئك الذين
يذهب بهم الترف والليان الى اتقاء الألم باغفال القيام
بالواجب عليهم .

وشأن العاقل في اللذة إذا كان حراً في تناولها ، ولم
يكن له ممانع عنها ، أن يتمتع بها ، ويتخلص من الآلام .
ولكن إذا اعترضه فيها واجب من الواجبات الاجتماعية ،
أو ضرورة من نظام المعاش ، وجب عليه أن يرض لذته ،
ويتقدم لتحمل الألم والتعب ، فإن نبذ اللذات الصغيرة
لاقتناء اللذات الكبيرة ، واحتمال الآلام الخفيفة ، لدفع
الآلام الشديدة ، هو ما يقضى به حكم العقل على الانسان .
وليكن عقله ميزاناً يزن به الراجح من المرجوح
وليست اللذة في كل هذا بالمعنى المشهور بين الناس ، بل هي
ما يلائم الجسم والنفس ، ويصل بهما إلى سعادة الحياة من
طريق الفضيلة .

إن اللذة الكاملة ، التي نشدها من طريق الفضيلة ،

ونجتهد في تعريفها لك ، ليست هي ذلك الاحساس الذي
تحسه في أثناء سد الحاجة . بل هي الحالة التي يكون عليها
الجسم قبل حدوث الألم . فلا يقال للجائع وهو يلتقم
طعامه لقمة بعد لقمة ، إنه قد بلغ اللذة ، وإنما يبلغها عند
الانتها من الطعام ، لأنه ثائر أثناء الطعام في طريق رفع
ألم الجوع ولم يصل إلى غايته بعد وهي الشبع ، الذي تناول
الطعام لأجله . فاللذة إذن في تمام رفع الألم ، لا في مباشرة
رفعه ، لأنها في مباشرة رفعه غير كاملة ، واللذة الكاملة هي
الراحة التي يجدها الجائع عند الشبع ، والظمان عند
الارتواء ، والسهران عقب المنام .

لكن الناس بمعزل عن معرفة قدر هذه اللذة ، التي
هي سلامة الجسم من الألم . وسلامة النفس من
الاضطراب . ومن جهلهم بها أنهم لا يدركون ما هم فيه من
تلك الراحة . إلا بعد زوالها عنهم . ولا يتمتعون بها وهم
فيها ، ولا يتوهمونها إلا في أثناء المسير اليها ، فترى
صاحب الجسم السليم من كل علة . لا يدرك أنه في أعظم
لذة من الصحة . إلا إذا حل به مرض من الأمراض ، يرفع
عنه الحالة التي كان عايشها من الراحة . فإذا تدرج في أدوار

النقاهاة من مرضه . توهم فيها لذة ، وإنما حقيقة اللذة هي
الرجوع إلى حالته الأولى التي كان غافلا عنها . وكذلك
لا تكون الراحة للمقيد في الحديد عند فك القيود عنه ، بل
عند ما يعود جسمه إلى الحالة التي كان عليها قبل وضع
القيود في رجله . وهذا الوهم هو من أكبر الأسباب التي
سودت حياة الناس بالأكدار والأحزان . وجعلتهم
يعتبرون . أنفسهم في الشقاء . وهم في نعيم ، ويرونها في نعيم
وهم في شقاء . غافلين عن نعمة تلك الراحة التي هي منتهى
السعادة والتي قيل فيها : « ليس للراحة قيمة » فهي فوق
كل قيمة في متاع الحياة الدنيا .

واذن فقد تقرر أن المسافة التي يغيب فيها الألم .
لا المسافة التي يرتفع في أثنائها . هي اللذة المقصودة لدى
الحكيم . والعاقل الحكيم لا يمتنع عاياه أن يدرك الراحة
في حياته على كل حال ، ولو كان واقعا في الألم . فإن الألم
إذا كان طويل المدة كان ذا فترات تكون فيها الراحة ،
وإن كان شديدا فانه يكون قصير المدة لسرعة الخلاص
منه . فالذي يهون على نفسه تحمل ما لا بد عنه من الآلام
في هذه الحياة على موجب هذه القاعدة - إما بتحملها

والتمتع براحة فتراتهما في حالة خفتها ، وإما بارتقاب
الخلاص منها في حالة شدتها - هو من يملك راحة الدنيا وسعادتها .
وهذه الراحة هي التي يطلب الانسان الفضيلة من
أجلها ، ويرغب فيها للوصول اليها ، كما أنه لا يطلب الطب
لذات الطب بل للتوصل به الى صحة الجسم ، التي تنشأ عنه
كما أنه لا يطلب صناعة الملاحة لذاتها بل للوصول إلى
السلامة . والحكمة التي هي صناعة الحياة ، إذا لم يكن منها
راحة للانسان في حياته ، فهي غير مرغوب فيها ، ولا
مطلوبة لذاتها . هذا هو تعريف اللذة التي يخطئ الناس في
معرفتها ، ولا يدركون حقيقتها ، ولا وصول اليها إلا
بالحكمة التي تكشف غطاء الأوهام ، وتمكن الانسان من
الحكم الصحيح على الأشياء ، وترفع عنه غشاوة الغباوة
التي استحكمت فيه ، وضلته حتى صار يتخوف مما لا
خوف منه . ويحزن مما لا حزن فيه ، وهي التي ترشده الى
تقليل الرغبات .

والنفس راغبة اذا رغبتها واذا ترد الى قليل تقنع
وتنزع منه الاعتداد بأحكام الناس وآرائهم الفاسدة
المتولدة فيهم من جهلهم بالحقائق ، والتقليد على العمى .

فتنطفئ منه نار الطمع والشره . التي طالما أودت بالأفراد
والجماعات والشعوب بما أورثتهم من الأحقاد والأضغان .
وما أضرمته من نيران الفتن والحروب . وجعلت
الناس في شقاء دائم . وألم مقيم . فالعائل هو الذي ينفي عنه
أسباب المخاوف ، ويقتل من الرغبات ، ويرضى بالكفاف
ويقتصر همه على ما تقضى به الحاجة الضرورية والطبيعية .
التي ليس من ورائها طمع ، أو شره . فانهما مجلبة الأحران
والآلام . ومنبع المخاوف والشرور . وقد ألم بذلك أحد
الشعراء في قوله :

مرحبا بالكفاف يأتي عفيفاً
وعلى المتعبات ذيل العفاء
ضلة لا مريء يشمر في الج
ع لعيش مشمر للفناء
يحسب الحظ كله في يديه
وهو منه على مدى الجوزاء
ليس في آجل النعيم له
ظ وما ذاق عاجل النعماء

ذلك الخائب الشقي وان كما
ن يرى أنه من السعداء
حسب ذى اربة ورأى جلى
نظرت عينه بلا غلوا
صحة الجسم والجوارح والعر
ض واحراز مسكة الحوبا
وقد آن أن نبين غلط الناس في حكمهم على الأشياء
هو ضلال رأيهم، إذ يعتبرون الخير منها شرا، والشرا منها
خيرا. وأكبر خطأ يتملكهم هو خوفهم وفرقهم من
الموت الذى هو رافع الأسقام، ومزيل الآلام، فيعدونه
أعظم الخطوب، وأكبر الشرور، واعلم انه ليس شىء من
أمور الدنيا الا وهو محل للشك حتى قال بعض الفلاسفة:
« ان كل شىء يقبل الشك » حتى قولتى هذه « ان كل
شىء يقبل الشك » ومن بينهم طائفة يعرفون بأهل الشكوك
فهم يشكون في كل شىء، حتى في وجود أنفسهم، ويعتبرون
الحياة بما فيها حلم حلم، ورؤيا نائم، وقد أشار الى ذلك شاعر
يتتبع أقوال الحكماء:
هون على بصر ماشق منظره فانما يقظات العين كالحلم

ولكن مهما كان الشك في أمور الحياة ، فإنه يوجد .
أمر واقع حق لاشك فيه هو الموت . ولكن من عجيب .
الأمر أن الانسان يوقن بالأباطيل ؛ ويؤمن بالخرافات ،
ويصدق بالوهم والخيال ، ولا يوقن بالحق وهو الموت .
وكأنما هو يشك فيه :

والموت لا يخفى على أحد ممن ترى وكأنه يخفى .
ولذلك كان من أول هداية الأنبياء للناس تذكيرهم
بالموت ، ومن أكبرهم الفلاسفة تفكيرهم به وبسط القول .
في ان الحياة باطل والموت حق . وقد أخذ أهل الصين .
عن فلاسفتهم سنة أجروها بينهم مجرى العادة في وجوب
تذكر الموت كل حين ، فاذا ولد الطفل عندهم صنعوا له
نعشاً بقدره ، ووضعوه بجانب المهد يحدونه على مقدار
النمو في الطفل ، ولا يزالون يفعلون ذلك حتى إذا بلغ أشده .
وضعوا النعش بجانب السرير ، الى أن يحل يوم أجله .
فيحملونه عليه ، يشيرون بذلك الى أن يوم الولادة ويوم
الوفاة أمران متلاصقان . وحبلان متصلان ، وان الانسان
يمشى في هذه الدنيا ، وكأنه عابر جسر عن يمينه الموت ،
وعن شماله الحياة ، وانه كما يدب بنموه في الحياة ، يدب في

آن واحد ، بأنفاسه نحو الممات . وانه يجب على العاقل أن يحضره على الدوام ذكر الموت كما يحضره ذكر الحياة ، وان اليقين كل اليقين في اعواد النعش ، والشك كل الشك في أساطين القصر . وهم يلبسون السواد حدادا في يوم الولادة ، والبياض فرحا عند حلول الأجل ، حتى أنست نفوسهم بالموت ، ولم يعتبروه شرا ، بل هو الخير كله عندهم . ولذلك لم يجعلوا بينهم حكم الاعدام قصاصا وعقابا ، وانما العقاب عندهم هو في ايلام الأجسام ايلاماً متواترا لا تقصر معه مدة العمر ، لأن الموت هو المنقذ من الآلام كلها . وانما جعله أهل المدينيات الأخرى عقابا لجزع النفوس منه ، وتخوفهم الدائم من وقوعه ، فكان تصورهم في الوهم هو العقاب الأكبر عندهم .

فمن منتهى غباوة الانسان وجهله . أن يتخذ في كل منبت شعرة من جسمه جبلا من الأمل يعلقه بالبقاء في الحياة الدنيا ، ويمحو من ذاكرته كل سبب يربطه بصفايح القبر .

والناس ينقسمون بالنسبة إلى ذكرى الموت قسمين : قسم لا يتذكر الموت ، ولا يجرى له على خاطر ، كأنه قد

رسخ في ذهنه إلاّ فناء مع البقاء ، ولا هلاك مع الوجود ، وهو لا يحس هذه الحقيقة أم الحقائق في الدنيا الا عند المشاهدة والعيان ، ولا يذكر الموت الا ريثما تنقضى عنه المشاهدة كأن يشتد به مرض يذكره بالموت ، فاذا قام من مرضه لم يتذكر الموت بعده . واذا شاهد الموت بعينه في أهله وجيرانه ، لم يبق ذكره لديه الا ريثما يطرأ عليه شغل من مشاغل الحياة يصرفه عنه ، فيعود الى ذهوله الاّ اول موعماه المستديم .

وقد يظن بعض الناس أن في الذهول راحة من التفكير في الموت ، والحقيقة أن في هذه الاوقات القصيرة التي يتذكر الذاهل فيها الموت عند نزول المرض به ، أو عند وفاة أحد أهله وصحبه ، من آلام الجزع والفرع مالا تقاس آلامه بآلام الحياة ، كلها ويقع هذا التذكر الفجائي على ناحيته موقع زلزلة تهدم في لحظة واحدة جميع ماشيده في رأسه من الآمال ، وما ابتناه في خياله من الأمانى ، التي تسبح به في تيار الخلود ، أو هونفخة الصور ، تذهب برشده ، وربما أصابه في أعضائه وجوارحه فجعله ثانی قريبه أو صاحبه في القبر .

لما رأت أختها بالأمس قد خربت
كان الخراب لها أعدى من الجرب
وهم أشد الناس حزناً عند فقد فقيد لهم ، لا
اللائس عليه ، ولكن لخوفهم أن يصيبهم ما أصابه ، وهلعهم
أن يجرى عليهم ما يجرى على من بجانبهم . وإذا قابلتهم
يوماً بقولك لهم « مات فلان من أصحابكم . اعتراهم
الدهش والعجب ، كأنك أخبرتهم بأمر ليس من الجائز
وقوعه ، فهم يبادرونك بقولهم « وكيف مات ؟ »
لا يستفهمون عن سبب الموت ولكن عن الموت نفسه !!
ومن دأبهم أن يعملوا ما في وسعهم لصرف أفكارهم
عن ذكرى الموت ، ويدأبون في طي المذكرات به ، كان
لى صاحب أديب اذا قرأ قصيدة « بانت سعاد » أغفل منها
قول كعب فيها :

كل ابن أثنى وان طالت سلامته
يوماً على آلة حدباء محمول
وأخر كان لا يمشى في جنازة ، ولا يحضر مأتما ، ولا
يزور مقبرة . فاذا رأى يوماً آلة من آلات الدفن ، أو
الكفن هرب يبصره عنها ، واستعاذ الله منها ، ومنهم من

يهجر بيته اذا مات فيه ميت. حتى لا تذكره جدرانها بخروج
الميت منه. ولو أنك أهديت الى أحدكم صورة جمجمة
من ذهب مرصعة بالجواهر، لاستنكرها وبشع منها، ونبذها
عنه بعيدا، وربما أضمر لك العداوة، وسخط عليك
لاعتقاده أنك قصدت به السوء في تذكيره بهذا الشر العظيم،
والأمر الفظيع. حتى لقد صارت تلك الجمجمة التي بقيت
في محافل الماسون أثرا من آثار آبائهم الأولين في
وجوب تذكر الموت والتفكير فيه، آلة بين أيديهم اليوم
من آلات الارهاب والتخويف. يمتحنون بها شجاعة
الداخيين فيهم، ولو بحثت في رأس الماسوني الحديث
الدخول عن أثر ما قاساه ليلة دخوله من تصنيعهم في
الارهاب والتخويف لم تجد باقيا منه في هذا الرأس الا
تلك الجمجمة. وكان في مصر رجل من أهل العلم والورع
يتطوع لغسل الموتى، اذا دعاه أمير أو كبير لغسل من يعز
عليهم موته تبركا به، فكان مع سعة علمه، ودمائة أخلاقه،
ونظافة ثيابه، ورقة شمائله، اذا دخل مجلسا من مجالس
العلماء انقبض الجميع، وانسل الواحد منهم في أثر الآخر،
واشمازوا أن يضعوا أيديهم في يده. وشاهدنا سيدا من

السادات قد تهدمت زاوية آبائه وأجداده، الذين يعيش في
كنف مجدهم، وشرف نسبتهم، ويفخر بالاتصال بحبل تلك
الرفات، يفرع ممن يذكره ببناء المتهدم، ويستهل على نفسه
أن يزور المقبرة يوماً لينظر في وجوه ترميمها. أما إذا
قال قائل لواحد منهم في مغاضبة « ان شاء الله تموت »
فهناك الهول الأكبر من العداوة والبغضاء، لأنه جاء
بأفزع ما يكون من أنواع الدعاء عليه .
ولضرب الأمثال وذكر النوادر في هذا الباب مجال
متسع نخشى معه الملل من كثرتها، ويكفي الانسان أن
ينظر الى من حوله في كل ساعة من كل يوم فيرى العجيب
الغريب من الشك في اليقين والارتياب في الواقع المحتوم
وأما أهل القسم الثاني بالنسبة الى ذكرى الموت، فهم
أولئك الذين تراهم يذكرونه دائماً، لخشيتهم من وقوعه،
وخوفهم من نزوله، فيتولاهم الرعب، ويترقبون وقوعه
في كل حين، ويعتبرونه هادم اللذات، ومقوض بناء السعادة،
وأكثر ما يذكرونه إذا خلوا من أشغالهم، وانتقلوا الى
أوقات فراغهم، فيكبدون صفاتها ويسودون بياض
عيشتهم، بالتخوف الدائم من زوالها. وأشد ما يكون

عذابهم من ذكرى الموت، اذا أردف الله عليهم النعمة في
أثر النعمة، وزادهم من متاع الدنيا وزينة الحياة. فلا
يبصر أحدهم ولده يلعب أمامه، الا وتغلب على فكره
التخوف عاياه من الموت، أو الترحل قبله ولما يتمنع به -
ولم ينظر الى ما اكتنزه من مال واقتناه من زخرف،
الا نظر المغشى عليه خشية الحرمان منه بالانصراف عنه -
وما يكون مصيره بعد رحيله، ومآله بعد زواله. لا يزالون
هكذا في حال القلق، والهلع، والجزع، والفرع، والرعب -
والكدر، فتنقبض النفوس، وتطرق الرؤوس، وتسقط
عليهم الهموم كسفا من العذاب، يتمهلون تحتها تملعل
السليم المنهوش، ويثنون أنين المصنفد في القيود « مشاهم
كمثل الذي استوقد نارا، فلما أضأت ما حوله ذهب الله
بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمي
فهم لا يرجعون. أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد
وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر
الموت »

وترى هؤلاء الذين يذكرون الموت ويخافونه،
ويحرصون على الحياة في هم دائم، وعناء مقيم، للتوقى من

الأخطار ، والتحرز من أسباب الهلاك . ولا يكتفون
في ذلك بما يدخل في طوقهم الاحتراس منه . بل
يتجاوزونه الى معالجة ما لا دافع له من الاقضية المحتملة
والنوازل الطارئة والبلايا العامة ، كالطواعين والأوبئة
وغيرها من أمراض العدوى وكالزلازل والصواعق
والعواصف . ومنهم من لا يركب السفينة خشية الغرق
ولا القطار خوف المصادمة ، ومنهم من يقوم من
مناحه مرة بعد أخرى فيدور في أنحاء البيت كالعس
يتفقد أثاث الحجرات أن يكون اتصل بها شيء من
أسباب الحريق . فاذا أمن المسكين ساعة واستغرق في
نومه فرأى في الرؤيا أن أحداً ممن مات من أقاربه
او أصحابه دنا منه او سلم عليه أو دعاه اليه قام من منامه
في اشد حالات الفزع كالذي يتخبطه الشيطان من المس
اينما وجهه ووجهه ترقب وقوع الموت وحلول الأجل
وصدق الرؤيا . وكأنه في فزعه ليله ونهاره عدو المعتصم
في قول ابي تمام :

وعلى عدوك يا ابن عم محمد

رصدان ضوء الصبح والاضلام

فاذا تنبه رعبه واذا غفا

سلت عليه سيوفك الأحلام
ومن غريب المناقضات في أمرهم أنهم مع هذا
التوجس الذي هم فيه اذا ذكرت اسم الموت في مجالسهم
تلوا أعناقهم وكادت تقف حركات قلوبهم من الغيظ
ونقموا عليك ان ذكرتهم بما لا يغفلون عن ذكره
والتخوف منه ليلهم ونهارهم . كما أنهم يستبعدون
الموت فلا يكادون يصدقون بموت الفجأة ، فاذا سمعوا
بحادثة من هذا القبيل أخذوا يتعللون العلل ويتمحلون
الأسباب وينتحلون للميت أمراضاً كامنة وأدواء مزمنة
لم تكن به

واذا أخبرتهم بموت شاب في غضارة عمره
وغضاضة سنه ، زادوه ماشاءوا من عدد السنين ،
كأن الانسان لا يموت شاباً ، ولذلك تراهم يخفون حقيقة
أعمارهم ، ويجهدون في تنقيص سنيها ، ويقفون على سن
واحد ، وان جرت من بعده السنون ليغشوا أنفسهم
ويطرحوا من فكرهم امكان المفاجأة من ذلك العدو
الأحمر أو الأزرق في حين الغرة وفي مقتبل السن ،

وأيضا ممنوا إلى تراخي الأجل .
أما سيرتهم في التحرز لأجسامهم ، والتوقى لأبدانهم ،
في ليلهم ونهارهم ، أن يعترها اعتلال ، أو يصيبها اختلال ،
فإنهم يتغالون فيه إلى حد الجنون ، فيحاذرون هبوب النسيم ،
وحرارة الضياء ، ويتوهمون في كل لقمة تخمة ، وفي كل
جرعة غصة ، والمكروب وما أدرك ما المكروب في
الطعام وفي الشراب فيلتزمون الحمية ، ويتخيرون لهم
ألوانا خاصة من الغذاء يضوى بها الجسم ويضعف ،
فيعمدون إلى استعمال الأدوية المختلفة بجواهرها المعدنية ،
لتمويته فيزداد بها ضعفا ، لأنه لا يمتصها بل ترسب فيه ،
وتعطل وظائفه ، وتفسد المعدة التي عليها صحة الجسم كله ،
فينتقل الوهم إلى الحقيقة ، وتتناوبهم الأمراض التي أعدوا
أنفسهم لها بأيديهم ، فيقعون في يد الطبيب ، فإذا لم ينته
به جهله وطمعه إلى إراحتهم بالموت عاشوا بين يديه عيشا
كله آلام وأوصاب إلى أن يحل بهم الموت من خوف
الموت ، ويذهبوا إلى حال سبيلهم ، لا هم تمتعوا بالحياة ،
ولا هم نجوا من الموت ، ولا تنكر علينا ما قدمناه من أن
التوهم والتخوف يحدث الأمراض في الأجسام ، فإن
- م ١٢ علاج -

للخوف سلطانا على النفس والجسم ، لا يعدله سلطان في العالم ، وله أعظم أثر في فساد صحة الانسان . فيختل به نظام الجسم ويؤدي به إلى الهلاك . ولذلك لا نرى بدا من الكلام فيه للانتباه إلى إضعاف سلطته ، ووجوب طرحه جانبا ، فإن في نموه ، والاسترسال فيه ، شقاء الروح ، وسقم الجسم ، فتسيل منه ينابيع الأحزان والآكدار ، وتتفجر عيون الغموم والهموم فنقول :

أجمع جلة العلماء من أطباء العصر الحاضر ، بعد كشفهم وبحثهم ، على أن مجرد التوهم والخوف ، يحدث أمراضاً في البدن لم يكن لها من سبب سواه في الباطن والظاهر ، ولا محل هنا للتطويل بذكر مباحثهم التشريحية ، وإنما ذكر شيئاً مما يستشهدون به برهاناً على مباحثهم العلمية ، من الحوادث والوقائع التي شاهدوها بأعينهم ، ومارسوها بأنفسهم ، مما لا يقبل الشبهة ، ولا يعتوره الريب ، ففيها الكفاية .

باشتر أحد الأطباء تشریح میت مات بداء الكلب ، فاعتراه خوف شديد ، أن يكون قد علقت به الجراثيم ، وأصابته العدوى ، واشتد به الخوف فأخل بنظام الجسم ،

فتولاه الأرق ، وفقد شهوة الطعام ، وانقبضت نفسه عن تناول كل سائل ، فكان إذا ألهمه العطش شرب جرعة من الماء لا يكاد يسيئتها ، وزادت به الحال إلى أن هام على وجهه في الطرق ضالاً مختبلاً ، وأدرك بعض أهل صناعته خطبه وأنه من أثر الخوف والوهم وسوء التصور ، فصرفوا جهدهم لتخفيف مابه ، وصحبوه أياماً لم يفارقوه فيها ساعة ، وما زالوا به حتى أقنعوه بأنه سليم الجسم معافى من تلك العدوى ، وأن مابه هو من أثر الخوف لا سواه. فأخذ ينسى بفضل اجتهادهم تلك الفكرة القائمة به وشفى منها شفاً تاماً . ومن الأمور المقررة في أقوال الأطباء أن مجرد الخوف يولد في الجسم أعراضاً هي بذاتها أعراض داء الكلب ، وذهب أحد مشهورينهم إلى أن الخوف هو سبب الكلب ، وإيس سبيه عقر الكلاب ولعابها . روى أن كلباً مسعوراً عقر أخوين وكان أحدهما على أهبة السفر في يومه إلى أمريكا فسافر إليها وغاب خبره عن أهله ، فلما عاد إليهم بعد عشرين سنة أخبره أحدهم بأن أخاه مات من أثر عضه الكلب ، فانتفض فوقه تأثير ذلك عليه كالصاعقة ، وظهرت عليه أعراض داء الكلب في أقصى

حدتها ولزم فراشه حتى مات .

وقد ثبت أن الجانب الأعظم ممن يصابون بداء الكلب لم تكن إصابتهم ناشئة إلا عن إخبارهم بأن الكلب الذي عضهم كان مسعوراً . ولا يمكن الطيب أن يميز بين الإصابة بالكلب الناشئة عن الخوف ، والإصابة الناشئة عن عدوى الداء .

وكما يمرض المصاب بالوهم ، فإنه يشفي أحيانا بالوهم : دعى طيب لمعالجة احد المصابين بالكلب بعد ان يش منه جميع الأطباء وحكموا بموته ، فأخذ يقلب جسمه تقريبا دقيقا ثم مال عليه بعد ذلك واثم فمه ، فما لبث المريض ان شفى بفضل تلك القبلة التي اعتقد بها ان الطيب لم يقبله إلا وهو آمن على نفسه من عدوى ذلك المرض ، وانه خلو منه . واكثر ما يفتك الخوف بالناس في أيام الأوبئة والطواعين ، والذي يعظم خوفه ، يكون أكثر عرضة لها من سواه ، وقد يكفي الخوف وحده ليسبب اعراض الوباء ولو كانت جرائمه منعدمة بتاتا . ومما يحكى ان إحدى النساء بلغها وفاة اخت لها بالوباء في بلاد بعيدة فجزعت جزعا شديدا ، وخیل لها ان سيصيبها ما اصاب اختها ،

واستولى على فكرها هذا الوهم فأضاع منها شهوة الطعام
وأحدث لها إسهالا ، ولم يستطع الاطباء إنقاذها إلا بعد ان
اثبتوا لها بالبراهين القاطعة انه يستحيل إصابتها بتلك
العدوى لبعدها الشقة بينها وبين اختها ، وأن ما أصابها إنما أصابها
من أثر الخوف .

وقد وصف أحد الأطباء زلزلة في كتابه ، فقال ، إن
عدد الذين أصيبوا بالحمى من شدة الخوف وماتوا بها ،
كان أكثر من الذين تهدمت عليهم الدور .

وقد يموت بعض الخائفين فجأة ، جزعا من الذهاب
إلى المستشفى . وبعض الناس اذا اشتد به الخوف . اتحرق ،
كما يحصل لبعض الجناء إذا سيروهم إلى الحرب فيستعملون
أسلحتهم في قتل أنفسهم ليخلصوا من آلام الحرب .

ومن القول المتواتر في مصر أن داء الزهري يأتي
أحيانا من الفزع والرعب ، وقد لاحظ أحد الأطباء أن
جرحي الجيش القاهر أقوى على احتمال آلام جراحتهم
من جرحى الجيش المقهور ،

وكان أحد كبار الأطباء إذا أتوه بمريض سأله أولا
عما إذا كان اعتراه مرة خوف ، أو ضيق شديد ، فيستعين

بمعرفة ذلك على علاجه .

فأنت ترى أن آلام النفس أفتك بالأرواح من آلام
الجسم ، ولو علمت عدد الذين يقتلهم اليأس ، والهجم ،
والوجد والغرام ، ودا الحنين إلى الوطن ، في كل زمان
ومكان ، لأيقنت أن الخطب من ألم النفس عظيم .

ومن الحوادث التي تروى لبيان تأثير سلطان الخوف
والوهم في النفس ، حتى يصل بها إلى الهلاك ، ما حكاه أحد
المعلمين في مستشفيات لوندرة من أن جماعة من طلبة
المدارس أرادوا أن يسخروا من رجل كانوا يبغضونه في
المدرسة ، فعمدوا إلى حجرة مظلمة في المدرسة ووضعوا
في ركن منها حطباً للوقود ، ووضعوا بجانبه فأساً محددة ،
وجلس في صدرها بعض الطلبة متشحيين بالآردية
السوداء التي تلبس في مجالس القضاء ، ثم أدخلوا الرجل
إلى الحجرة ، وأخبروه أنهم اجتمعوا لمحاكمته ، وأنهم
أعدوا الحطب للاحراق ، والفأس للاعدام ، فنظن الرجل
في أول الأمر أنهم يمزحون معه ، ولكن مازالوا
يؤكدون له أن الأمر جد وأن القضاة يبحثون الآن فيما
يستحق من العقاب ، فوجل الرجل وجلاً شديداً ، ونطق

القضاة بحكم الاعدام ، وبتنفيذه في الحال ، وتقدم الجلاد
والفأس في يده وبأشرف آخر عصب عينيه بعصا به ، ثم كتفوه
وأركعوه إلى الأرض وعند صدور الأمر بالتنفيذ لف
أحد الطلبة قطعة من النسيج مبتلة بالماء ولمس بها قفاه
يحاكى بها لمسة الفأس ، فتوهم الرجل أن القتل وقع عليه
فارتدى على الأرض لا حراك به ، فكشفوا عن عينيه
الغطاء وأخذوا بيده ليرفعوه فإذا به قدمات فعلا من شدة
الرعب والخوف .

ومنها أن جماعة من أطباء روما ، أرادوا أن
يشاهدوا بأنفسهم تأثير الخوف ، فطلبوا من الحكومة أن
تسلم لهم في أحد المحكوم عليهم بالاعدام ليجربوه فيه ،
فدفعت إليهم أحد الجناة فأخذوه وأعلموه أنهم استنزلوا
الحكومة عن اعدامه بالخنق إلى اعدامه بفصد العروق
ونزيف الدم ، ليدرسوا عليه بعض الشؤون الطبية ،
وساروا به إلى أحد المستشفيات حيث اجتمع خلق كثير
من الطلبة والمعلمين ، ووضعوا العصا على عينيه وأصعدوه
بعض الدرج ، ثم أدخلوه حجرة الغسيل ووضعوه بجانب حنفية
ثم شمروا أكمامه وأوهموه أنهم سيبدأون بالفصد ، ومس

أحدهم بمبضعه ذراع الرجل مسا خفيفا ، وأرسل آخر
منهم فوهة الحنفية فسال منها الماء بخريره ، فما زال الماء
يسيل ، وقوى الرجل تنحل شيئا فشيئا ، لاعتقاده ان الماء
الذي يسيل هو دم النزيف حتى وقع ميتا .

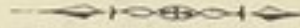
وكما يمرض الجسم بالوهم ، كذلك يصح بالوهم ، ومن
آية صحة ذلك أنه كان في أحد المستشفيات امرأة
مصابة بداء الصرع ، فاذا اعترتها نوبته ، اذابت القلوب
من الألم والأنين ، فيحقنها الطبيب بالمرفين لتسكين
الألم . وحضرتها النوبة ذات ليلة فقام الطبيب إلى
صندوق الأدوية ليأخذ المرفين فوجده قد نفذ ، واشتدت
الآلام بالمرأة حتى اقلق صراخها جماعة المرضى ، وزاد في
آلامهم ، فلم يجد الطبيب من حيلة امامه الا ان ملأ زجاجة
الحقنة بالماء مكان المرفين وقصد المرأة فحقنها كالعادة
فسكنت في الحال ، واثر الماء في اعصابها تأثير المرفين .
بمجرد الوهم . ومما يروى ايضا في هذا الباب ، ان أحد
المصابين بداء الصدر كان نائما مع صاحب له في غرفة
نومه ، فقام صارخا في آخر الليل وقد انطفأ السراج ، يشكو
ضيق النفس ، وينادى صاحبه من منامه ، متخبطا

في الظلام ، متحيراً في الغرفة ، يتلمس الحائط بيديه ،
حتى ظن أنه عثر على مكان النافذة ، فأخذ يعالج فتح
زجاجها فاستعصى عليه فضربه بقبضة يده فكسره ، فتنفس
المريض مرتاحاً وذهب عنه ما كان به من ضيق التنفس ،
وعاد كل منهما إلى نومه ، فلما استيقظا في الصباح وجد
زجاج النافذة سليماً مغلقاً ، وتبين لهما ان الزجاج الذي
انكسر في الليل وتنفس المصدور بكسره ، هو زجاج
خزانة الكتب وما استنشق المريض إلا هواء موهوماً .
وقصارى القول ان حوادث الخوف والوهم وتأثيرهما في
النفوس شائعة كثيرة ، ومن استسلم لهما لم يلبث أن يصاب
جسمه بالأوجاع والأوصاب من تأثيرهما ، فاذا مرض
الجسم مرضت النفس بمرضه ، فيقع الانسان في الدور
والتسلسل ، وإذا مرضت النفس بالوهم والخوف أثرت
في الجسم فيضعف وتتأبه الأمراض ، فزيد في ضعف
النفس وأمراضها وأشدّها الأكدار والأحزان .
فاذا أنت أخذت في جسمك بقانون الصحة كما قدمنا ،
وعالجت نفسك وعودتها دقة النظر ، وحسن التبصر ،

وصحة القياس ، ومعرفة حقائق الأشياء ، وحلت بينها وبين
التدرج في الهواجس والوساوس ، وأبعدت بها عن
الاستسلام للاوهام والأخيلة. وتذكرت الموت في كل حين، لا
للخوف منه، ولكن للاستئناس به حتى تصل إلى أن تحدد
في وجهه لا أن تغمض عنه ، وأن تعتقد فيه أنه شفاء
الأسقام وختام الأوجاع ، وسبيل النجاة ، وأنه هادم
الآلام ، لا هادم اللذات ، وأنه واقع لا محالة ، وأن أوان
حلوله مخبوء مجهول ، وأنه بمقربة منك في كل لحظة ، وعند
كل لفتة ، هانت عليك الدنيا ، وصغرت في عينيك ، ولم
تحفل بنزول النوازل ، وهبوط النوائب ، ولم تتأثر من
شروع الخلق ، وتذكر دائماً عند كل خطب ينزل ، قوله
تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » وكن فيهم مثل ذلك
الحكيم الذي مثل أمام قضائه ، ليحاكموه ظلماً على أنكاره
لعبادة الأوثان ، فلما قضوا عليه بالموت قال لهم : « وأنا
أيضاً قد قضيت عليكم بالموت » .

نعم إنك إن أخذت بهذه الوسيلة في معالجة النفس ،
وتدرجت في استعمالها سلم جسمك من الأمراض

والأوصاب ، وسلمت نفسك من الهموم والأكدار ،
وقضيت عيش الحياة في صفاء الى أن يحل الأجل ،
« ووجهك وضاح وثغرك باسم » وتلك هي السعادة في
الحياة الدنيا .



المعروف والمعروف

إن أكثر ما تتألم به النفوس ، وتتوالى منه الشكوى ،
كفران النعمة ونكران الجميل ، وضياع المعروف ومقابلة
الاحسان بالاساءة والخير بالشر .
ولو تأمل الانسان في انتشار هذه الشكوى بين الناس
واستدامتهم عليها ، لكاد يحكم بأن الانسان شرير بالطبع ،
وأنه مجبول على السوء ، وليس الأمر على ذلك ، وإنما
الأصل فيه أننا نعرف كيف نسدى المعروف ولا نعرف
كيف نتقبله التقبل الخلق به ، فان المعروف إذا وضع
في غير موضعه ، أتج الكفران ، فإذا أتج إحساننا
كنودا ، فلا حق لنا في الشكوى ، لأننا أضعنا المعروف منذ
وضعناه ، ولا محل للاستغراب من أن رذيلة الكنود
والكفران ، منتشرة انتشارا عظيما بين الناس أكثر من
انتشار بقية الرذائل ، لأن لذلك عدة أسباب ، أحصاها
سوء التبصر في اختيار من نضع معروفنا عنده . ومن
الغريب أننا نأخذ بالحيلة إذا أردنا ان نقرض إنسانا

شيئاً من الدراهم ، فنبعث وننقب عما يملك من متاع
وعقار ، لنا من على أموالنا من الضياع . ولا نتحاط أدنى
احتياط إذا أردنا أن نسدى معروفاً ، أو ان نصنع جميلاً .
والمعروف ، وان كان يشابه الدين ، إلا أنه يختلف عنه بأن
الوفاء لا يكون عن مطالبة وتقاض بل عن رضا خاطر ،
وطيب نفس ، فلا تليق فيه الشكوى من تأخر المدين . لأن
هذا الدين لا يوفى من أدراج الصناديق ولكن يوفى من
ثنيات القلوب ، ويكفى في وفائه الاعتراف به ، وليس
انكار الجميل بأقل عاباً ، واعظم عاراً . من المطالبة بالجزاء
عليه .

وإذا كان المسدى إليه يستحق اللوم لشكرانه الجميل ،
فهل يسلم المسدى من اللوم أيضاً ؟ كلا . فان في طريقة
الاعطاء في بعض الأحيان إغراء وتحريضا على الكفران ،
فتارة يظهر علينا الامتعاض والتكره عند صنع المعروف ،
وتارة نذكر المسدى إليه بل نطالبه برد المعروف ، والربا
عليه ، وتارة يعترينا الندم بعد اسدائه ونخالط المسدى
إليه بوجه غير مرضى ، ونظر مشوب بالاعتلاء ، فيتكدر
الصفاء ، وتنقبض النفس ، فنحن الذين نميت الشكران

بأيدينا ، ونبعث الشكران بعد اسداء المعروف ، بل ابان
إسدائه . ومن منا الذي أجاب القاصد لأول سؤال ، وأعطى
الملتزم لأول رجاء ؟ ومن منا لم يقطب جبينه ، ويلو
عنقه ، ويتعلل بكثرة أشغاله ، ويطاول في الحديث حتى
لا تكون فرصة لصاحب الحاجة أن يكشف بحاجته ؟ ومن
منا لم يتدبر الحيل للتخلص منه كأن يستقدم إلى مجلسه من
يخجل الطالب منه أن يبوح بطلبته أمامه مثلا ، حتى إذا
ضاقت الحيل ، ولم يكن بد من سماع الطلب ، فاما أن نجيب
بالوعد أولا ، وهو نوع من الرنض ، وإما أن نعطي مع
التعبيس ، والتقطيب ، والكره ، والتأنف . فكيف ننتظر بعد
هذا شكرانا خالصا وقد أخذ صاحب الحاجة ماأخذه منا
انتزاعا واغتصابا لاإسداء واعطاء ؟ وأي جميل يكون لك
عنده اذا رميت له مارميت في يده من علياء كبريائك ، أو
رميته له للتخلص من الطلب وأنت واجم ، ثم تؤمل
الشكران بعد ذلك ! وكيف ترجو جزيل الشكران على
سوء الاعطاء ؟ إنما يأتي الشكر من حسن الطريقة التي
يسدى بها المعروف ولو كان ضئيلا ، فكيفية الاعطاء هي
التي عليها المعول هنا ، وقد قيل حسن الاعطاء خير من

قيمة العلية . فاذا أردت أن تولد الشكران فلا بد أن
تظهر نيتك الخالصة في محبة الاسداء، ولا تنقص من قدره
بالمواعيد ، ولا تصحبه بعلامات ظاهرة من المن تسوء
النفس ، وقد جبات طبيعة الانسان على سرعة التأثر
بالاساءة أكثر من الاحسان ، ونسيان الخير أكثر من
نسيان الشر ، فلا تنتظر شكرا وقد أسأت في كيفية
الاحسان ، ويكفيك من المسدى إليه أن ينسى سوء
المعاملة في إحسانك اليه وألا يحقد عليك .

ومع هذا كله فان كثرة أهل الجحود والكنود ،
لا توجب تشييط همتنا ، ولا تحول وجوهنا عن اسداء
المعروف ، وكفران نعمة الله لم تغير من نعمته علينا ، وما
زالت نعمته تتناول الشاكر والكافر . وانا لنستحق خيبة
الرجا في الشكر إذا كنا أعطينا ما أعطينا على نية انتظار
الجزاء والمكافأة عليه .

كما أننا لا ينبغي أن نمتنع عن المعروف إذا تكررت لنا
منه حوادث الكفران والكنود . فكثيرا ما خاب ظن المرء في
امراته وولده ، فما منعه ذلك من معاودة الزواج وتربية
الأولاد ، وإشرافنا على الغرق مرة لا يمنعنا من ركوب البحر

مرة أخرى، والنكوص عن صنع الجميل بدعوى عدم
المكافأة عليه، يدل على التطلع إلى استجلاب الفائدة من
ورائه، وعلى ذلك يكون ما أعطينا كالقرض نتظر معه
الوفاء، وفي هذا ما يتخذه كافر النعمة تعلقة بتعلل بها، وحنة
يحتج بها ليفر من خجل الكفران، ولا يكون كفران
النعمة وصمة عار إلا إذا تركت المسدى إليه مخيرا في الشكر
لامغصوبا عليه ولا مندوبا إليه.

ومن أكبر الامارات على النفوس العظيمة الكريمة
أنك تراها تفعل الخير لمجرد حب الخير. ومن الآيات
الحكيمة التي يجب أن يأخذ المحسنون بأدبها قوله تعالى:
«إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا»
ومن أجل هذه الامارات في تلك النفوس أن كثرة أهل
الكفران لا يثنونها عن معاودة اسداء المعروف، فالكريم
لا يبالي كفر الناس نعمته ام شكروها، ويكفيه ان يستمرى
حلاوة الصنعة حين اسدائها، وهى اللذة التي يظرفه بها
الاسداء وقد قال الشاعر في ممدوحه

لو كفر العالمون نعمته لما عدت نفسه سجاياها
فهو يصنع الجميل ولو كان يعتقد أنه ليس في العالم قلب

شكور، ويؤثر أن يضيع إحسانه سدى على الانتقباض، عن
إسداء الاحسان، والامتناع عن فعل الخير بعلّة الحكم
على القلوب، بانطوائها على الكفران، مسابقة للكنود،
ومشاركة له في لؤمه، وإذا كان ذنب الكنود عظيماً فإن
ذنب الممتنع المتعلل على هذا الوجه أعظم منه. ومن ظن
أن الكريم يخسر معرفه فقد أخطأ، لأن لفظ الخسارة
يشير الى معنى انتظار الربح، وليس إسداء المعروف من
باب التجارة ولا من حساب الدخل والخرج، وماله
الا باب واحد وهو باب الخروج والانفاق، فإن دخل فيه
شيء من الشكران كان ذلك ربحاً، وإن لم يدخل فيه منه
شيء فلا خسارة فيه. إذن فلا يجوز لمحسن أن يقول
يوماً خسرت الجميل وقد استمرراً لذته عند الاسداء.

ومن آداب إسداء المعروف أن يسدل المسدى دونه
ستران النسيان يبقى المعروف وراءه مستوراً حتى
تكشف عنه يد الشكر من المسدى اليه.

والمعروف، رأس مال، طرحه في يد الكنود خير
من حبسه في يد المحسن، لجواز أن يربو بالشكر في نفس
الكنود يوماً من الأيام، على مرور الزمن، ولا يبعد عليه

أن يتعلم منه حسن المثال في إسداء الصنيعة .
ولا يقتصر إسداء المعروف على بذل المال بل ،
يتناول المال ، والجاه ، والسلطان ، والنصح ، والارشاد ،
وحسن المعاملة .

وليس الانسان وحده هو الذي يدرك معنى حسن
المعاملة ، بل الحيوان الكاشر ، والأسد الضاري ، إذا عودته .
الحسنى انتهى به الأمر الى الاستئناس والخضوع .

ولا شئ أقتل للكفران في النفوس ، من المواظبة
على دوام الاحسان ، فمن أسدى معروفًا ولم يشكر عليه
في المرة الأولى ، فلا يبعد أن يشكر عليه في المرة الثانية ..
فاذا قاوم الكفران الاحسان مرتين ، فعليك أن تعززهما
بثلاثة تذكر المسدى اليه بالاثنتين .

ولنبحث الآن في ماهية المعروف وتقدير قيمته ..
فالشائع بين الناس أن كل إنسان منهم لا يعتبر نفسه
مدينًا لك بالشكر الا بمقدار ما اسديته اليه . فمنهم من
يقدر معروفك عنده بمقدار ما نقدته من المال ، ومنهم
من يقدره بمقدار الوظيفة التي سعيته له في الوصول اليها ..
ومنهم من يقدره بمقدار الخطر الذي أنقذته منه . بمعنى

أنك لو أعطيت صاحبك مائة درهم، كان شكرانه لك على قدرها، ولو أعطيته مائتين كان شكره على حسب العدد، وهلم جرا! فقيمة الجميل ترتفع وتنخفض، بارتفاع الأعداد وانخفاضها! وذلك من الخطأ بمكان عظيم. فإن العطايا، والهدايا، والصلات، والمساعي، إنما هي علامات، ظاهرة تدل على المعروف، وليست هي المعروف بذاته.. لأن المعروف لا يحس بالنظر، ولا يمس باليد، ولا يدخل في الكيس، وإنما هو ما يدخل في القلب، ولا يقدر قدره إلا ضمير الانسان، والفرق عظيم بين السعى الذي تسعاه لصاحبك، وبين الحاجة التي تسعى له فيها.. فلا الذهب، ولا الفضة، هما المكنونان للمعروف في الحقيقة، ولكن نية الفاعل للخير عند فعله. وهذا هو الذي يجب تقديره في النفس، واسدأ الشكر عليه، وهنا لا يقال في القليل إنه قليل، ولا في الكثير إنه كثير، وإن كان الناس لا يأخذون إلا بالظواهر ولا يلتفتون إلا إلى مقدار ما يعطى وما يؤخذ، جاهلين قيمة المعروف في ذاته، وغاب عنهم أن هذه الأمور التي تتطلع لها أنظارنا، وتمتد إليها أيدينا، ليست إلا حطاما فانيا، وعارية متنقلة.

تنزعها من أيدينا صروف الدهر ، وتغلبنا عليها نوازل
الخطوب ، ولكن يد الدهر لا تقوى على أن تمحو ما
سطر في الصدور من إسداء المعروف . بل هو ثابت فيها
أبدا ، وأثره باق على الدوام . ولو فرضنا أنك انقضت
صاحبك يوما من قطاع الطريق ثم عادوا فاختطفوه في
اليوم الثاني ، فانهم لا يختطفون معه معروفك وإنما سلبوه
التمتع به ، ولو نجيت اولاد جارك من الحريق أو الغرق
ثم نزل بهم بعد ذلك مرض أودى بهم ، فإن المعروف
لا يزال ثابتا في ضمير الوالد . فكل ما نأتيه من اعمال الخير
والصلاح ، ونسميه بالمعروف والجميل ، والاحسان ، إنما
هو أكام تفتق عن حسن النية في الميل والعطف
كما أن الأوسمة وشارات الرتب لا تؤدي بذاتها ما يفهمه
الناس منها ، وإنما قيمتها في نية التشريف بها . ولذلك تجد
الفرق عظيما بين الرتبة التي يسديها الملك من نفسه على نية
التشريف ، وبين الرتبة التي تؤخذ منه بالوسائط ، لأنه
ينقصها نية التشريف بالذات وهذه هي المقصودة من
جميع تلك العلامات المعروفة بالنياشين والاوزمة
وزخرف الملابس .

فتعريف المعروف إذن ، هو الفعل الذى يصدر من تلقاء النفس ، مجرد الرغبة فى الخير ، ويستمد مسديه لذته من اللذة التى يشعر بها المسدى اليه . فالنية هى التى تقوم بالأشياء وتقدرها قدرها ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات » فرب صغير من الاحسان يكون كبيرا بصفاء النية فيه ، ورب صلة عظيمة يحط من قدرها كدر النية فيها ، وهنا يقال : « نية المرء خير من عمله » . أما إذا اعتبرنا أن قيمة المعروف هى قيمة العطية ، وليس للنية دخل فى ذلك ، كان الشكر حينئذ على قدر العطية مع أن الأمر بالعكس ، فيجوز أن يكون ما تعطيه شيئا قليلا ويكون الشكر عليه عظيما ، ويجوز أن يكون صاحب المعروف فقيرا ، ولكن حالته عند الاعطاء تجعل عطيته مثل مواهب الملوك فى القدر والشأن . وقد اختلف الناس فى تعريف الكريم ، وإنما الكريم هو الذى ينسى ما هو فيه من الاحتياج عند رؤية المحتاج ، وهو الذى يكون مغرما بالاعطاء فى كل وقت من الأوقات . وهو الذى يرى نفسه كأنه الآخذ والآخذ منه كأنه المعطى له ، كما قال الشاعر :

تراه إذا ما جئته متهللا

كأنك تعطيه الذي أنت سائله
وهو الذي إذا رددت إليه معروفه نسي أن له عندك
معروفا، وعده يدا لك عليه، وهو الذي لا ينتظر أن يأتيه
صاحب الحاجة بل يسعى في البحث عنه، ومن كان على
خلاف ذلك فهو تاجر مراب يأخذ منه المعروف أخذك
الدين من الغريم، أما الذي يعطى للسمعة، والرياء، والشهرة
بالاحسان، فانك ان أخذت منه شيئا فحسابه على تلك
الفخفخة وليس عليك من حسابه من شيء.

كان من عادة «سقراط» أن يقبل الهدايا من تلاميذه
كل على قدر ثروته، فجاء الدور يوما على تلميذه «ايشين»
وكان فقيرا فتقدم الى أستاذه وقال له ليس عندي ما أقدمه
بين يديك مما يليق بقدرك، وهذا الموقف اليوم وحده
هو الذي أذكرني فقري وأشعرني به، فأنا أقدم اليك كل
ما أملكه وهو نفسي، فلا تحقر هذه الهدية بما هي عليه،
واعلم أنه ان كان غيري أهدى اليك كثيرا فتمدأ بقى لنفسه أكثر
مما أعطى « فقال له « سقراط. » وكيف تزعم أنك
أهديت الى شيئا قليلا ان لم تكن نمنسك عندك كذلك،

فقد وجب على إذن أن أتقبلها ، وأعني بها عناية خاصة حتى
أردها اليك بعد تثقيف العلم أحسن مما أخذتها منك «
ففاق التلميذ بهديته هذه جميع أقرانه ، وعلا عليهم في المنزلة
عند أستاذه الذي قدر نيته حق قدرها ، فوفى له بشكرها ،
فقد تبين لك من ذلك أن الانسان يكون أكبر المحسنين
وهو أفقر الفقراء ، وإن كيفية الاعطاء ، تعلو على كمية العطاء .
وكيفية الاعطاء هي أن تبدأ باعطاء الضروري ، ثم
النافع ، ثم ما يكون للتجمل والتنعم ، أما الضروري فهو الذي
يقوم بحفظ الحياة وموقعه في القلوب أعظم مما يأتي للنفع
والتجمل . فقد يجد الانسان مندوحة عن ذلك التجمل
والتنعم ويستغنى عن احتمال عبء الشكر عليه .

والضروريات تنقسم الى ثلاثة أقسام ، أولها مالا
يقدر الانسان أن يعيش بدونه ، وثانيها مالا ينبغي
للانسان أن يعيش بدونه ، وثالثها مالا يرضى الانسان
أن يعيش بدونه ، فيدخل فيه الانقاذ من المهالك ، وإشراك
العداوات ، وانتقام الظلمة ، وصنوف الأذى . وكلما عظم
الخطر الذي تذوده عن صاحبك ، كان الشكر عظيماً على
تقديره ، فإن الانسان اذا سلم من خطر ، كان على وشك

الوقوع فيه ، بقيت في نفسه صورته على أبلغ تمثيل ، وكلما
تمثل للنفس الناجية ما كان ملماً بها من الطلع والجزع
وخوف المكروه ، زاد ذلك في جمال الصنعة ، وبهاء
المعروف عندها ، فتزداد شكراً . ولا ينبغي لصانع المعروف
أن ينتظر بصاحبه اشتداد الخطر عليه لانقاذه ابتغاء المبالغة
في قيمة الصنعة ليكون عظم الشكر بقدر جسامه الخطب ،
فان ذلك مما ترفع عنه أريحية الكريم والافقد دخل
الأمر في باب المتاجرة والمراحة .

والقسم الثاني يدخل فيه كل ما يمكن الانسان أن يحيا بدونه
حياة يفضلها الموت ، وهو فقدان الحرية والشرف والفضيلة .
والقسم الثالث يدخل فيه شهوة النفس في زينة الحياة
الدنيا من الأموال ، والمقتنيات ، وكل ما تتطلع إليه النفس
ويعز عليها فقده .

ويلتحق بذلك ما كان من الأشياء النافعة التي لا تكاد
تحصى كالمال بمقدار لا يفضل عن الحاجة ، وكسده
الرغبات المحدودة مما لا يدعو إلى التبذير والاسراف ،
وكالجاه والمنصب ، ويلتحق به أيضاً ما لا يعد من أسباب
التجمل والتنعم . ومزية المعروف هنا احكام مناسبتة

فاذا أردت اسداء المعروف في هذا الباب فليكن ما تعطيه
عزيراً غير مبتذل ، أو نادر الوجود في زمانه ، أو نادر المثال
في زماننا ، فإن لم يكن نفيساً في ذاته ، أعاره الزمان والمكان
من النفاسة ما كان ينقصه من قبل . فعليك باعطاء ما يجمل
وقعه في النفس ، ويبهر في النظر ، ليكون ذكرى الصنعة من
المسدى اليه مقروناً بالاعجاب بما اهديته إليه .
ويجب عليك ألا تخطى مواقع الهدية التي تهديها ،
كأن تهدي آلات الصيد والقنص الى شيخ ضعيف ،
أو أن تهدي كتاباً الى رجل أحمى . أو لعبة الى عالم فقيه .
كما أنه يجب المحاذرة من أن تهدي ما يظن فيه
التعريض والتفريع ، كأن تهدي زقاً من الخمر الى مدمن
للشرب ، أو أزلام ميسر الى مدمر للقمار ، ففي ذلك
تعريض بالمهدى اليه يذهب بالصنعة بل يثير الضغن .
ومن حسن الكيفية في الاعطاء أن نعطي على الطريقة
التي نريد أن يعطينا الغير بها . وأن يكون الاعطاء مشفوعاً
بما يدل على طيب الخاطر ورضا النفس ، مقروناً بالمبادرة
اليه منزهاً عن التباطؤ ، فإن كان هناك ما يلجى الى الريث
وجب أن يكون مصحوباً بما يدفع عنه تهمة التردد . فإن

التردد أخو الرفض ، ولا يستحق الشكر عليه .
وقد قدمنا أن المزية في صنع المعروف هي في النية على
عمله ، فإذا وقعت المماثلة في الاعطاء فكأنما وقع من
الرفض بعينه . وفي هذه الحالة نكون قد أعطينا على كره .
ومن الناس من يكون عطاؤه لحيائه وخجله أن يقابل
الطالب بالرفض ، وليس هذا من باب الكرم في شيء .
وحلاوة المعروف في المسارعة مع الطلاقة والبشاشة ،
والاجابة قبل السؤال أولى وأجمل في باب المعروف ،
فتوفر على الطالب مضاضة الرجاء ، وذل السؤال ، فان
صاحب الحاجة لا يسأل حاجته الا وهو في حيرة وتردد
يترقق في وجهه ماء الحياء ، فاذا كفيته مؤونة السؤال
ضاعفت قيمة المعروف . ولا يكون النوال نوالا محمودا
اذا هو جاء من طريق الطلب والسؤال ، فان أغلى
الاشياء قيمة ما أرقت في سبيله ماء المحييا ، وأخلقت فيه
أديم الوجه :

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله

بدلا وان نال الغنى بسؤال

سواذا السؤال مع النوال وزنته

رجح السؤال وخف كل نوال
وما نكس الرأس سائل وتلعم لسانه . إلا لشعوره
بذل موقفه ومهما عجلت بالعطاء بعد السؤال فانك لا تبرأ
من نسبة التقاعد عن معونة صاحبك حتى أكرهته على
مرارة السؤال . ومن الواجب ان تحس حاجته وهي في
نفسه قبل أن يكشفك بها ، حتى اذا أدركت حاجته وهي
في خفائها أزلت ما به من مضاضة التردد بين الاقدام
والاحجام . فاذا سبقك الى السؤال ، فعليك بقطع كلامه
كرامة أن تطيل عليه ذلك الموقف ، موقف الاستعطاء
والاستجداء ، وبادر ما استطعت الى اجابة سؤاله بحالة
يشعر منها مسابقة ضميرك الى اسداء المعروف .
وكما أن مبادرتك باعطاء المريض الشيء الزهيد من
الزاد والماء عند الحاجة تقوم مقام العلاج النافع ،
فكذلك القليل العاجل الذي تعطيه لصاحبك لتكشف
عنه عوزة يكون خيراً من الكثير الآجل الذي يتخلله
التباطؤ والتردد .

وعليك أن تضم الى بشاشة الوجه وارتياح النفس
عند اسداء المعروف ، لطف العتاب لصاحبك لتقاعده عن

قصدي الى هذا الحين ، كأن تقول له « اني لا اغفر لك .
ترددك وتقاعدك عن طلب حاجتك ، كما اني أشكرك على
أن خصصتني بها من دون أصحابك لحسن ظنك بي ،
و ثقتك بحسن مودتي . واعلم اني منذ اليوم رهين أمرك
فيما تكلفني إياه من خدمة ، ولقد ساحتك في استتارك مني
بستار الخجل والحياء عند الطلب في هذه المرة » فانك ان
فعلت ذلك ، زدت في مقدار الصنيعة ، وأسست في قلب
صاحبك ركنا من الشكر والحمد ، لا يهدمه النسيان ، ولا
يودي به مرور الزمان . ومن أكبر الأسباب التي تذهب
برونق المعروف ، بل تدعو الى الجحود والكفران ،
كثرة الوعد ، وطول التسوية . ومن الناس من يقصد
ذلك ، ويتعمده للتباهي بتردد القصاد عليه ، واقامة الوفود
ببابه . كأنما فعل الخير عنده ، سلطان لديه ، يتمتع بمظاهر
أبهته ، وجلاله ، أمام حاشيته وأتباعه . ولا حق لمثل
هؤلاء في الشكر على الصنيعة ، بل هم الذين يلجئون الناس
بهذه الأفعال الى الكفران . لأن كل ما يدخل في حساب
الوعد والمطل ، يخرج من حساب الشكر والاعتراف
بالمعروف وربما أدى طول الانتظار ، وكثرة الوعود ، إلى

البغض والحقد في نفس صاحب الحاجة . وكما أنه من
أن من أفضع أسباب الوحشية ، وأبلغ القسوة ، تطويل مدة
الايلام للمقدم للقتل ، وان المرحمة والانسانية في الاجهاز
عليه والتعجيل به ، لا في الابطاء والتطويل ، وان المدة التي
تسبق الاجهاز هي الألم كله . فكذلك انتظار المعروف
مدة الوعود من اعظم ما تألم له نفس السائل . وليس يفى
فيها الاحسان ابدا بقدر تلك الاساءة . وقد جهل
المكثرون من الوعد بالاحسان ان توالي تراكم هذه
الوعود ، يؤسس في نفس الطالب حقا وتجعله في منزلة
صاحب الحق ، الذي يجب قضاؤه ، فلا معروف ولا شكر ،
ولما كان اسداء المعروف علاجا لدا الاحتياج ، فالمماطلة
فيه مدرجة الى استفحال الداء ، وقلة نفع الدواء . ومن
الناس من يجرى في اسداء المعروف على طريقة التقطع
والتجزئة ، فلا يعطى صاحبه ما يريد اعطائه الا نجوما
في احيان متفاوتة ، فلا تجزى صاحب الحاجة في سد
حاجته التي قصده من أجلها في وقتها ، ولا ينتفع فيها بما
نالها أجزاء ، بل يبقى في شدة حاجته وان ظن صاحبه انه
سدها ، والقليل مع التعجيل ، ادعى الى الشكر من الكثير مع

التأجيل ، ومنهم من لا يصنع المعروف ويسدى
الاحسان ، الا اذا اصحبه اللوم ، والتعنيف ، ومرارة النصح ،
وسوء التبكيت ، فيكون معروفه مكروها ممقوتا كالجوهرة
حفت بها الأفاعى ، وكالزهرة تشول حولها العقارب ،
طلب بعض المقربين من احد الملوك صلة يوفى بها ديونه
فأمره الملك أن يقدم له جريدة بأسماء غرمائه ، ثم جمعهم
امامه ، ووقع على جريدة اسمائهم بأنه احسن بذلك المبلغ
المطلوب على فلان السفية المبذر (يعنى صاحب الحاجة)
لا يفاء كل ذى حق حقه من ارباب الدين . نفاص الملك
بهذا العمل صاحب الحاجة من ثقل الدين ، ومن واجب
الشكر فى آن واحد ، ومثل هذا لا يقال له معروف ولا
جميل ، وانما هو تشهير وتعير .

واسداء المعروف ينقسم ايضا الى قسمين ، قسم عام
يقتضى الجهر والاعلان له ، وقسم خاص لا ينبغى له غير
الاخفاء والكتمان . فمن القسم الأول ما يكون المجد فى
اعلانه والشرف ، مثل صدقات الفرائض ، وغنائم
الجيوش ، ومكافأة الملوك على الأعمال الصالحة بعلامات
الشرف ، وما يشابهها مما يزيد الجهر بها والاعلان لها قيمتها .

قال الله تعالى « ان تبدوا الصدقات فنعما هي ، وان تخفوها
وتؤتوها الفقرا فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما
تعملون خبير » وقال ابن عباس رضى الله عنه « صدقات
السرفى التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفا وصدقة الفريضة
علانيتها أفضل من سرها بسبعين ضعفا » .

والقسم الثانى هو الذى لا تكون العطايا فيه من
شأنها ارتفاع القدر ، وازدياد الشرف ، بل من شأنها سد
الحاجة ، ودفع العوز ، ومداركة الافتضاح ، وهذا يجب فيه
السكران وجوبا محتما ، وألا يعلم بالصنيع أحد سوى
المقصود بها وحده . وبعضهم يذهب الى ان جمال الصنعة
لا يتم الا بكتمانه عن نفس المسدى اليه ايضا ، ولذلك فان
كثيرا من ذوى المروءات يعمدون الى طرق الاحتيال
فى وجوه صلتهم لأصحابهم حتى يخف عليهم احتمالها . ومن
أجمل المدح فى هذا الباب قولهم : « فلان لا تعرف شماله
ما أعطته يمينه » .

فان قلت ان جهل المسدى اليه باسم صاحب الصنعة
معه مما لا يجعل لها حلاوة فى نفس مسديها بل يحرمه من
التمتع بشعور نفس صاحبه بمعروفه وانتظار الشكر منه

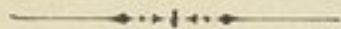
عليه - قلنا ان هذا الکتبان واجب لاتمام المعروف في
الحالات التي يكون فيها اسداؤه مما يحدث في نفس المسدى
اليه مرارة الخجل والحياء . وهناك فرص أخرى يوالى فيها
صاحب المعروف معروفه فيها فتقوم موالاة المعروف
بتعريفه لصاحبه وبدرک ما سبق بما لحق .

وفي الناس جانب عظيم يتبع معروفه بطول المن
والتذكير به ، وهؤلاء هم اسوأ أهل المعروف والاحسان
عملاً ، واقبحهم فعلاً ، واشدهم على النفوس ألماً وكرهاً ،
وأولاهم بالكراهة والحقد عليهم ، بدل الشكر والاهتنان .
وكفى بهذا الخلق السيء شناعة وفضاعة ، ماورد فيه من
الآيات المتعددة في الكتاب الكريم فمنها قوله عز وجل :
« الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون
ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف
عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة
يتبعها أذى والله غنى حلیم » وقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا
تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء
الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثلته كمثل صفوان
عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شئ »

تسما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين » ومن نوابغ
الكلم قولهم : « صنوان من منح سائله ومن » ، ومن منح نائله
« وضمن » . ومن قول الشاعر :

وإن امرأ أسدى إلى صنيعة وذكرنيها مرة للئيم
وطالما وصل المن والتذكير بالمسدى إليه أن يتخلص
منه بأى طريقة كانت ، ولو بالقائه نفسه في المكروه . غضب
بعض الملوك على أحد حاشيته ، وعزم على نفيه أو قتله ،
فشفع فيه بعض المقربين واستنقذه من ذلك الخطاب
الهائل ، ولكن ما برح بعد ذلك يمين على الرجل بمعرفه ،
ويذكره جميله ، في كل زمان ومكان ، حتى أجهأ إلى تفضيل
الوقوع فيما أنقذه منه على ترديد هذا المن فقال له يوما :
« قم فردنى إلى الملك فقد سئمت ما تكرر على من إنقاذك
لى من النفي أو القتل ، وتالله للوقوع فى أحد المكرودين
أهون على من هذا المن ، نعم إتى أقر لك بالفضل
والمعروف ، إذ أنقذتنى من الهلاك ، وأنعمت على بالحياة ،
فليتك كنت تركت لى ذكرى ذلك من نفسى ، أما وقد
جئت تذكرنى به كما يذكر صاحب الدين غريمه بدينه
ظالموت الذى أنقذتنى منه أحلى عندى من هذه الحياة التى

وهبتها لى ، ولقد تبين لى أنه لم يدفعك إلى حسن صنيعك ،
معنى الإحباب الاشتهار به والتبجح بفعله فاذهب فلا صنيعته
لك عندى ولا حق لك فى الشكر عليها « فمن أول شرط
المعروف الذى يستوجب الشكر ألا يذيعه صاحبه ولا
يشيعه ، فان الاعلان له نوع من المطالبة بالتعويض عنه .
ومن الواجب على صاحب المعروف أن يحبس لسانه عن
ذكره ، ولا يتشدد به . بل يترك أمر إشاعته والتمدح به
الى المسدى اليه فهو من شأنه وحده ، إن شاء أشاعه ، وإن
شاء كتمه ، وإلا فلا حق حينئذ لصاحب المعروف فى الشكر
على صنيعته لأنه يكون قد استوفى أجره هو بذاته عند ذكره له
بين الناس ، ويكون قد دخل فى صف ذلك الرجل الذى
مازال يمن على صاحبه بصنيعته حتى قال له ليس لك عندى
صنيعه فقد رددتها عليك مرارا ، قال له ومتى كان ذلك ؟
فأجابه : « فى كل مرة ذكرت للناس هذه الصنيعه وفى كل
مكان أذعت فيه معرفتك » .



فَضِيلَةُ الشَّفَقَةِ

الشفقة شكل من انجذاب النفس إلى النفس عند حدوث الألم لها، أو هي عبارة عن مشاركة الغير في الاحساس لألمه، وأثر من آثار الانفعالات الطبيعية التي تثيرها مشاهدة التألم في الغير. ومن مظاهرها المادية، فيض العيون بالدموع، إلا أنها لا تلبث أن تخمد وتنطفئ. إن لم يثبتها الانسان في نفسه بالتصور والفكر، ولذلك ترى بعض الناس الذين تنقصهم قوة التصور، وتدبر الفكر، يشاهدون حلول الألم باخوانهم ولا يتألمون لهم. فلا بد لاستكمال هذه الفضيلة في النفوس حينئذ من شرطين، حدة التصور وكثرة التجارب، أما حدة التصور فانها تجعل الانسان أهلاً لأن يدرك انفعال الغير ويحس ألمه، بل يحل محله، في الاحساس للألم، وهو نوع من وحي النفوس بعضها إلى بعض حتى يصير قلب الانسان كالمرآة ينطبع فيه ما ينزل بقاب صاحبه. وأما التجارب فلائها

تمكن الانسان من الاحاطة بمقدار الألم في الغير ، ومعرفة
له بما كابد من أمثاله وقاساه ، ولا تتم المشاركة في التألم إلا بتذكر
ما وقع للانسان من أمثاله . ولذلك نجد أن من كان أقل الناس
آلاما وأحزاناً ، يكون أبعد من سواه عن التوجع لأحزان
الغير . ولا يعظم إدراك الانسان لآلام أخيه إلا بما جربه
منها في نفسه . وقصارى التمول أن نمو الشفقة في النفس لا
يكون إلا بمقدار قوة الحافظة ، لأن التجارب ليست إلا عبارة
عن مجموعة من آثار ما مر على النفس مدخرا في حافظتها .
و تنتسب الشفقة أيضا إلى الأثرة وحب النفس ، فإذا
شاهد الانسان أخاه في الانسانية على حالة التألم ، أرجع
البصر كرهة إلى نفسه فأحس خلوها منه ، وتجلت له سلامتها
بجانب ألم صاحبه كما يحس من بالشاطئ بسلامته عند
مشاهدة الغريق يغالب الأمواج ، وهي تغوص به إلى قاع
البحر . وفوق ذلك فإن النفس تخشى وتفزع أن تقع يوما
من الأيام ، فيما وقع فيه الغير من الآلام ، وتكون الشفقة
هنا ناشئة عن توقع حلول المكروه بنا كما وقع لأمثالنا ،
فنفرض أنفسنا على مثل حالة المتألم فتكون شفقتنا عليه في نفس
الأمر إشفاقا منا على أنفسنا وبكاؤنا عليه بكاء على أنفسنا .

فأصل الشفقة يتركب من فرعين كما قدمنا ، اشتغال
الفكر بتصور الحال التي عليها الغير وما انطوت عليه نفسه
من الأحزان والأكدار ، والثاني اشتغال الحافظة بالبحث
في ماضي الحوادث عما وقع لها من أشباه تلك الآلام .
والنتيجة أننا نتلبس بحالة الغير ونصطبغ بصبغته . هذه
هي الشفقة في حقيقتها وكالها ، والفرق بين هذه
الشفقة المستكملة بالفكر والبحث ، وبين تلك الشفقة
الطارئة التي تنشأ عن مجرد الانفعال النفساني لوقوع الغير
في الألم ، كالفرق ما بين العقل والغريزة وما بين الإرادة
والشهوة وما بين القياس والشعور .

والشفقة وإن كان من أسبابها الأثرة وحب النفس
كما ذكرناه ، إلا أنها في واقع الأمر تتغلب عليهما بما تدفع
الإنسان إليه من وضع نفسه في موضع المتألم ، ورضاه
بقبول الألم الذي هو سالم منه وبعيد عنه ، ومساواته
نفسه بالتألم ، ومشاركته في التأثير بما يتأثر به سواه . وهي على
هذه الصفة لتجردها عن الغرض الذاتي واجتلاب الألم
إلى النفس حيث لا حاجة إليه ، تعلو على بقية الأخلاق
الفاضلة التي ترجع في الأصل إلى طلب الإنسان لمنفعته

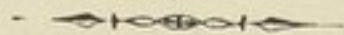
فيرتفع قدرها على سائر الفضائل بمقدار تنزهها عن طالب
المنفعة . والدليل على أن الشفقة من أفضل الفضائل طراً ،
أن الفضيلة إذا بالغ الانسان فيها وافرط ، انتهى به طرفها
إلى الرذيلة ، كفضيلة الشجاعة ينتهي طرفها إلى التهور ،
وكفضيلة الحلم ينتهي طرفها إلى الجبن ، إلا هذه الفضيلة
فإنك كلما بالغت فيها وتطرفت تكامل بهاؤها وتجلى جمالها .
ومن أقصى ما يمدح به الرجل الفاضل أن يحسن إلى من
أساء إليه ، والشفقة في كمالها إن تكاملت لا تفرق بين
القريب والبعيد ، ولا بين العدو والصديق ، ولا تتناول
من تألفه النفس وحده ، بل تتناول من يخالفها وينافرها ، إذ
تزيل ما بين النفوس من الحجب وتعتبر الناس في تأثيرهم
بآلامهم على السواء .

ومن الدليل أيضاً على رفعة قدر هذه الفضيلة ، ما
تستبشعه وتستتبعه عند مشاهدتها للافعال التي تتحقق
فيها خلو الفاعل من تلك الفضيلة ، فإذا رأيت اما تجرع
طفلها سما زعافا ، لم تقل لأول وهلة كيف أقدمت هذه
الأم على تلك الفعلة ولم تراقب عقاب الدنيا والآخرة ، ولم
تقل إنها خالفت سنة الوجود في العمل على بقاء النوع ، ولم

تقل كيف أخلت بتميم وظيفتها التي قدرتها لها الطبيعة ، بل
تقول أول ما تقول كيف صار هذا القلب جمادا خالياً من
الشفقة ؟؟

وفضيلة الشفقة هي مصدر لكثير من الفضائل ،
وناهيك أن الفضيلتين اللتين هما جماع الخير بين بني الانسان
في الوجود ، واللتين نوه بهما الخالق عزّ وجلّ ، ونبه
خلقه الى اتباعهما ، وأخذ الناس بوجوب العمل بهما في قوله
سبحانه وتعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان »
متولدتان عن هذه الفضيلة ، لأن الشفقة تكفنا عن
مباشرة الأذى ، وتحجبنا عن إيقاع الأيلام بالغير ، فهي
منبع العدل وذلك تعريفه ، ثم أنها تبعث النفس على
تخفيف الآلام عن الناس ، وتدعو الى فعل الخير معهم ،
وهو أصل الاحسان وذلك تحديده ، كما أنها تدعو الى
المساواة بين الناس في التألم لهم ، وتقررهما كما يقررهما
العقل ، لأن من أصول الشفقة أن يضع الانسان نفسه
في منزلة غيره ، ويحس في محله ، ويعنى بأحوال الناس
عنايته بأحوال نفسه ، فيكره لهم ما يكره ، ويجب لهم
ما يجب ، وهذا هو معنى المساواة في أكمل مظاهرها ،

وكل ما كان من معاني التكافل ، والتضامن ، والتعاقد ،
والتعاون ، في الجمعية البشرية داخل تحت معنى الشفقة .
وكفاها رفعة بين الفضائل أنها تتجاوز بالانسان
دائرة العمل بها في الانسانية ، الى دائرة العمل بها في
الحيوانية ، وليس في نظر الانسان أشنع ولا أفضع من
إيقاع الألم بالحيوان ، ولا يوجد في جميع الأعمال السيئة .
التي يأتيها الناس بعضهم مع بعض ويفعلها الانسان بنفسه
أقبح وأشنع من عدم التأثر مما يقع على الحيوان الأعجم من
الألم . فاذا تبرد الناس وجمدوا ، وأغفلوا هذه الفضيلة ،
وتقاعسوا عما تدعو اليه من فعل الخير والاحسان ،
ومعاونة إخوانهم في الانسانية عند حلول الآلام بهم ،
ونزول المصائب عليهم ، فان منزلة إخوانهم لديهم تكون
أدنا من منزلة الحيوان ، ومنزلتهم هم في أنفسهم أدنا من
منزلة الجماد .



الصِّبْيُ وَالذِّكْرُ

لرفعة القدر ، وعلو الشأن ، الذي ترغب فيه النفوس ،
وتتجه نحوه المساعي طريقان ، طريق الفضل القائم في
النفوس ، وطريق الاتفاق في وقائع الأحوال ، والتناسب
في ظروف الزمان . أما الطريق الأول فهو صعب المرتقى ،
وعر المسالك عظيم الشقة ، كثير التعب والنصب ، كما تتبينه
في ما يقاسيه أهل الطبقة المشتغلة في الناس بالعلوم والمعارف .
وأما الطريق الثاني فهو ذلول المركب ، سهل المنال ، قريب
المسافة ، كما ترى الحال في أهل الغنى وذوى المناصب
وأرباب الفتوحات .

والأعمال والآثار التي تقوم عليها رفعة القدر ، وعلو
الشأن ، تجرى في طريقين : طريق الخلود والبقاء ، وطريق
الزوال والفساد . وقد يبقى الذكر مع بقاء الأثر ، وقد
يزول الأثر مع بقاء الذكر . فالأعمال الخالدة مع بقاء
الذكر ، هي آثار المؤلفين والمصنفين ، من العلماء والحكام ،

فانك لاتزال ترى إلى اليوم ، «أرسطو» مثلاً ، قائماً بيننا
بكتبه يخاطبك بفكره ، ويرشدك برأيه ، وترى «ابن سينا»
موجوداً بمصنفاته ، يلقي إليك بأقواله ، ويفصح لك عن
مذهبه ، فكأنك تسمع بهما وتراها في آن واحد ، بعد أن
تولت بشخصيهما القرون ، وتراكت على قبريهما
الدهور . والأعمال البائدة مع الذكرى الباقية ، هي مثل
فتوحات «الاسكندر» مثلاً و «كنوز قارون» لاتزال تسمع
بهما إلى اليوم ، فالاسكندر لاترى أثراً من ملكه ، ولا
تفتأ تذكر قارون ولا ترى ذرة من ذهبه .

واتساع الشهرة ، وانتشار الصيت بين الناس برفعة
القدر ، وعلو الشأن ، يكون من جهة ادراكهم ، لكننه
الفضل في العمل أحياناً ، ويكون في الغالب من جهة
ادراكهم للعمل ، من غير تحقيق ولا التفات إلى قدر
الفضل فيه ، ولما كان الفضل ليس بشائع بين الناس ، ولا
لكل حي منه نصيب ، وليس يدرك الفضل إلا من نال
حظاً منه ، كان الحصول على الشهرة والسمعة ، وارتفاع
الذكر بين الناس من جهته ، من أصعب الأمور ، وأبعدها
منالاً ، وقل من نال من سواد العلماء ، وجمهور الحكماء ،

شيئا من هذا القبيل في حياته . وأدركه قبل مماته ، ومن
رأيته وصل منهم إلى شبه حظ من الرفعة والشهرة ،
ونصيب من حسن الذكر والصيت ، بين أهل جيله قبل
أن يطويه الدهر فلا يكرن مرجع ذلك لفضله وحده ، بل
لظروف معينة جادت بها الأقدار . والسبب في ذلك أن
الناس يرون أنفسهم متساوين في الخلقة ، ويعز عليهم أن
يقع التفاوت بينهم في مزايا النفس ، فيتولد منهم لذلك
ما شئت من التحاسد والتغابن ، وشدة التنأى عن الإقرار
بالفضل لصاحبه ، وإشهادهم على أنفسهم باتصافه بمزية
في نفسه من دونهم . والناس أعداء ما جهلوا ، فإذامضى
صاحب الفضل من بينهم لسبيله ، وخلى مكانه ، انجلت عن
أبصارهم غشاوة الحسد . فتبينوا حقيقة فضله ، وعلخوا
مقدار علمه ، فوهوا باسمه ، وتولعوا بذكره . وهناك شهرة
كاذبة ، وسمعة باطلة ، لا تقوم على فضل ، ولا تدور على
عمل يستحقها ، ولكن انحطاط الأفكار ، وقصور المدارك ،
يولد لصاحبها قدرا باطلا في النفوس المنخفضة لانخفاضه
إلى درجتها . واجتماعه معها في انحطاطها . فإذا ارتقت
الأفكار ، واستنارت الأذهان ، ظهر لها انخفاض شأنه :

فاعتات عليه وخلفته وراها ساخرة منه ، هازئة به ،
فيسقط اسمه ، وينقرض ذكره في حال حياته ، أو عقب
ناته . فلا تسمع له ذكرا ، بعد أن لم يكن يسمع أحد بغير
ذكره ، وبعد ان كان لا يدور على الألسنة غير اسمه .

أما اتساع الشهرة وانتشار الصيت ، من جهة الأعمال
التي لا يكون اصاحبها فضل فيها لذاته ولا مزية ، فهو أقرب
ما يكون ، وأيسر ما ينال بين الناس ، لأن الفضل فيها بينهم
ليس للشخص ، ولا لمزية امتاز بها عن سواه ، بل الفضل
فيها لوقائع الأحوال ، وتصرف الحوادث ، فلا يبقى محل
للحسد والغبن . ولأن كل إنسان يرى نفسه أهلا لها فلا
تمتتع عليه إذا صادفته لحظة من إقبال دهره وأدركته لحظة
من حسن الاتفاق في سيرته ، وفوق ذلك فان مثل هذه
الأعمال الناشئة عن أحكام الزمن ، وسلطان الحوادث ،
هي من الأمور الشائعة المتداولة التي تتناولها كل الأفكار
ولا يصعب على الناس خاصة وعامة سرعة ادراكها وفهمها
فتكون الشهرة على حسب ذلك في الاتساع والانتشار .
وكل الناس يدركون معنى السعادة في الغنى ، وقل من يدرك
فيهم معنى السعادة في الحكمة . وكل الناس يدركون معنى

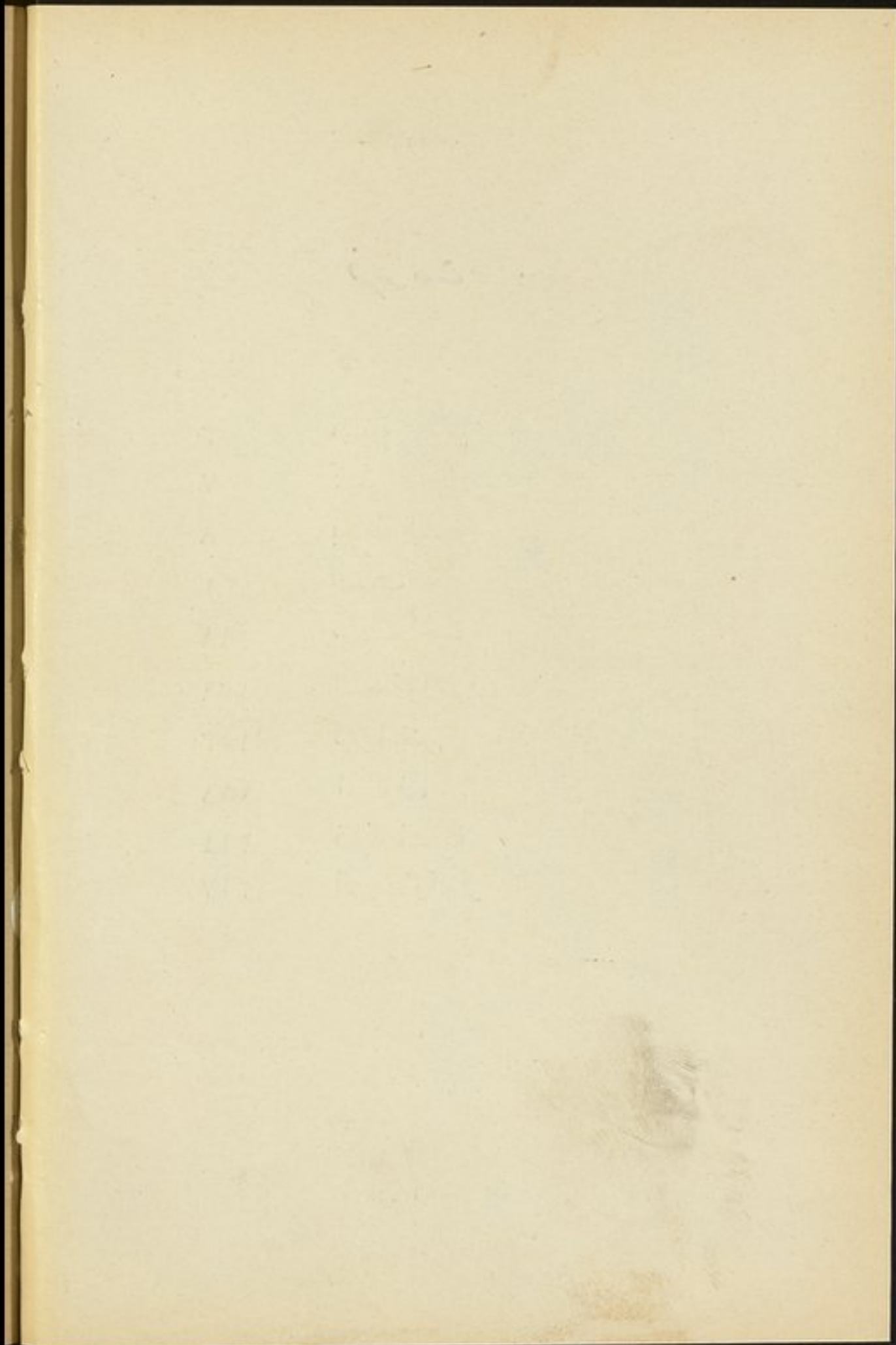
الفوز والانتصار في الحروب، وليس كل الناس من يدرك
معنى التعمق والرسوخ في العلوم. ولذلك ترى أن أكثر
من ينال رفعة القدر، وشهرة الذكر، بين الناس في أسرع
وقت، وأقرب مدة. واتفاق الاجماع عليهم، هم قواد الجند
بقطع النظر عن كل فضيلة ومزية فيهم، إذا انتصروا يوماً
في واقعة من الوقائع، وفازوا في معركة من المعارك التي
ربما لم يكن لهم فيها أقل أثر من العمل سوى وجودهم في
قيادة العسكر، ولم يقع الانتصار فيها إلا بحكم الاتفاق
وتقدير القضاء، مما هو خارج عن قدرتهم، بعيد
عن تصرفهم، وكم انتصر القائد بأدنى سبب وأوهى
علة. وكم تبلغ له الفوز والانتصار وهو في ظلمات اليأس
وعند انقطاع الرجاء بهفوة من عدوه وزلة من محاربه، لم
تخطر له بالخطر، ولم تجر في الحسبان. وكم تولد الانتصار
أيضاً بعدة أمور لا دخل لها في مهارة القائد، ولا في حسن
تدييره، مثل جهل العدو وسوء اغتراره وقلة عدده
ونقصان عدته. أو لبعض العوارض الطبيعية في رداءة
الموقع، ونزول الأمطار واتجاه الشمس، واكفهرار الجو،
ونحو ذلك من الأسباب التي لا تعد، ولا تحصى ولا

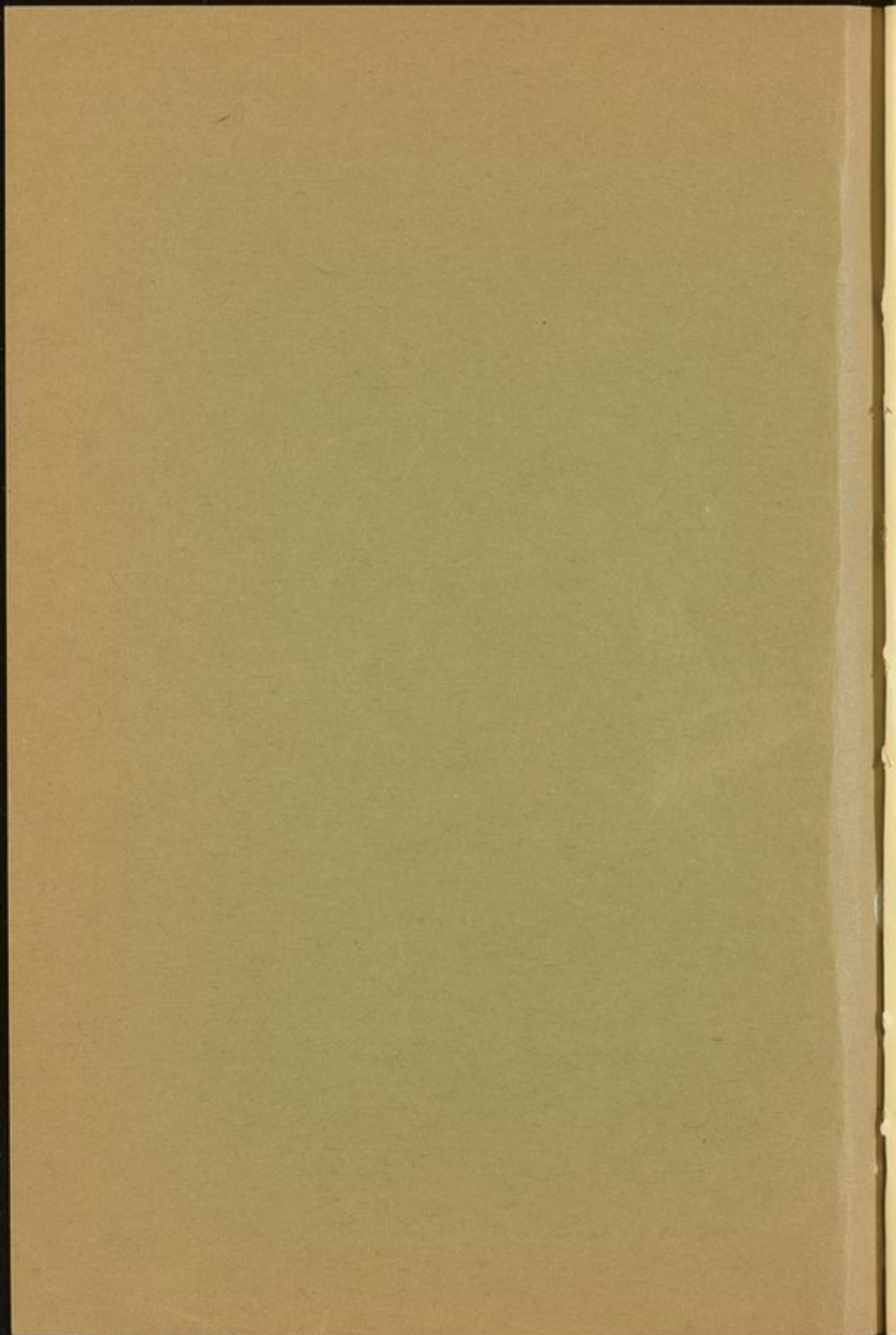
تحصّر ولا تستقصي . فما هو الا أن تجرد المقادير على
أحد القواد بسبب من هذه الأسباب حتى ينتصر بها على
عدوه فترى الناس كلهم أنصاره وأحزابه ، ينوهون
بذكره ، ويتباهون بعمله ويشيدون باسمه ، ويضعونه فوق
الرؤوس ، لا لأنه قد علم ما لا يعلمه سواه من فنون
الحرب . أو أنه ابتكر طريقه في اللقاء لم يهتد اليها غيره .
ولكن لمجرد كونه نال الفوز على عدوه بأى طريقة كانت
فهو يشخص في اعينهم صورة الانتصار وكفى بها فضلاً
لديهم وكفى بها مجداً له ونخراً ، وصيتاً وذكراً .

تم بعون الله وتوفيقه

فهرست

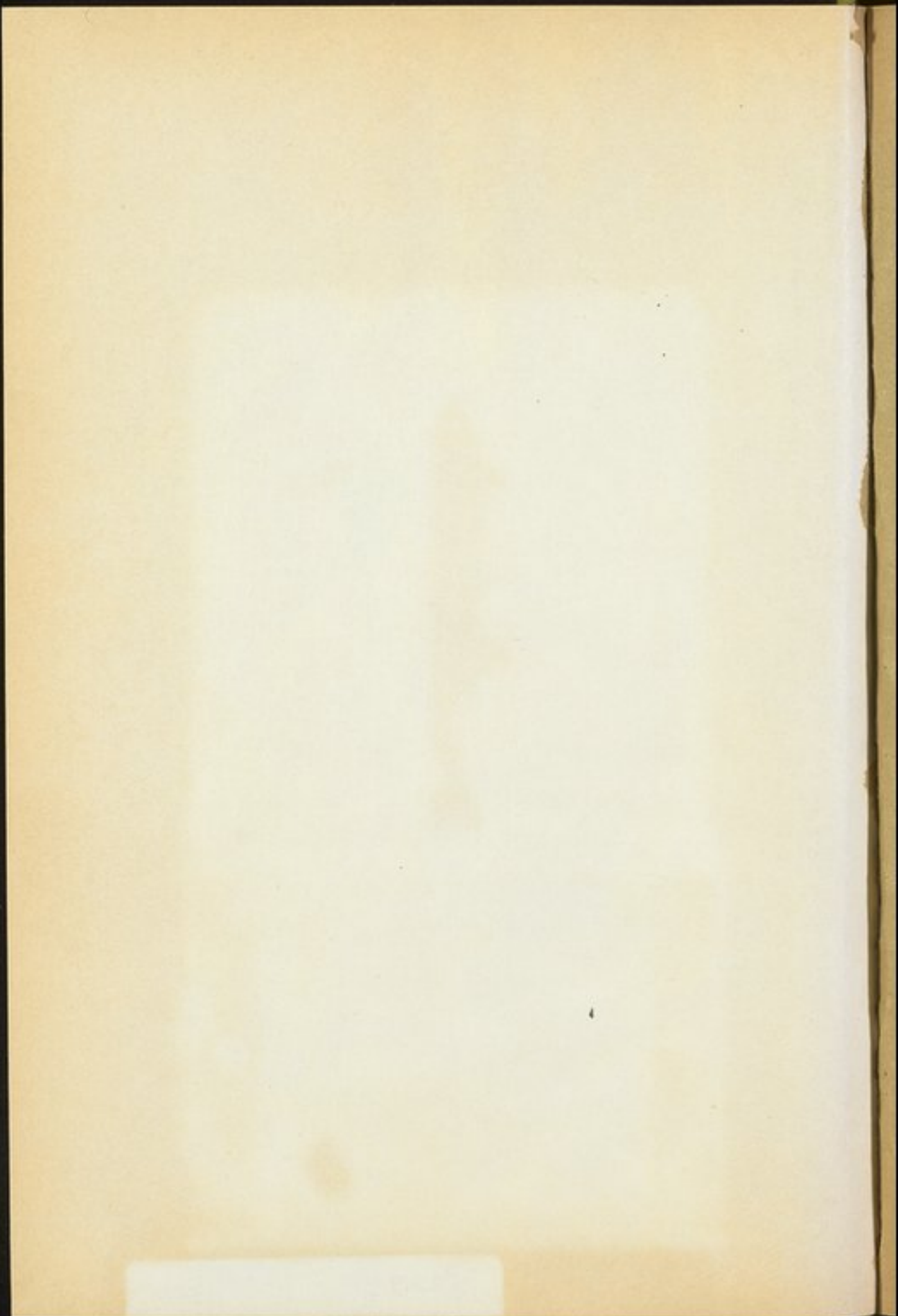
	صفحة
مقدمة	٣
تمهيد	٧
بساطة الفلسفة	٨
الغضب	٣١
ساعات الحياة	٩٩
السمعة والشرف	١٢٩
كدر النفس	١٥٣
المعروف	١٨٨
فضيلة الشفقة	٢١١
الصيت والذكر	٢١٧

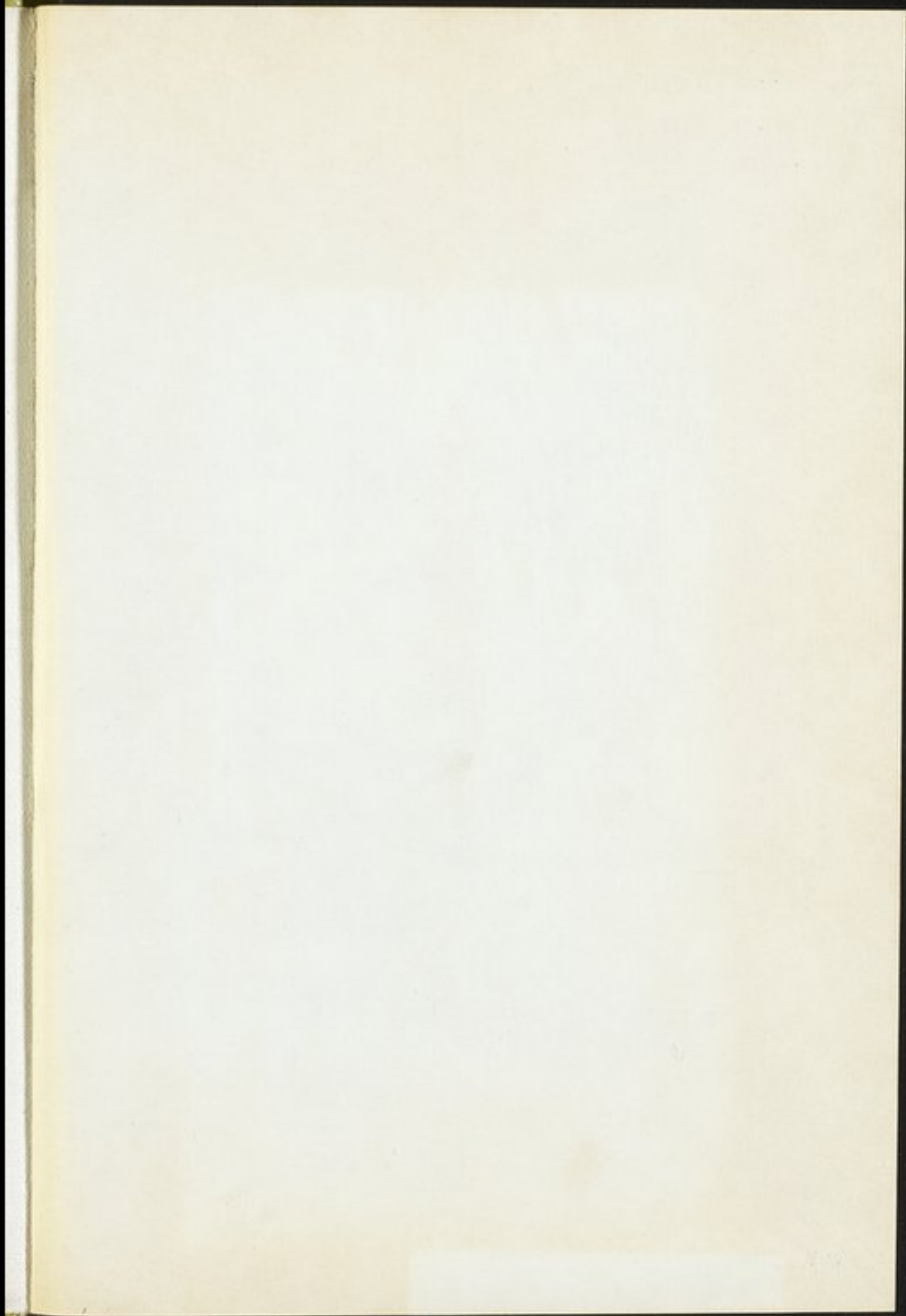




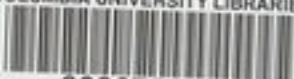
94

GENERAL BOOKBINDING CO.
72 423WB N 103 7992
QUALITY CONTROL MARK





COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036758191

BF
149
.M89

NOV 17 1972

